

القرآن حكمة الحياة

سَمَاحَةُ الرَّجُلِ الدِّينِيِّ آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى الْحَاجَّ
السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ تَفِي الْمَدِينَةِ

القرآن

حكمة الحياة

سَمَاجَةٌ لِّلْمُجِيعِ الدِّينِيِّ آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى الْحَاجَّ
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ رَفِيعُ الْمَدِينِ سَيِّدُ الْكَوَالِدِ

هوية الكتاب

الكتاب: القرآن حكمة الحياة.

دروس و محاضرات: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمدتقي المدرسي دام ظله.

إعداد: القسم الثقافي في مكتب المرجعية.

الطبعة الثالثة: ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م. (٢٠٨ صفحة)

الناشر: مركز العصر للثقافة و النشر.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ❶

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ❷

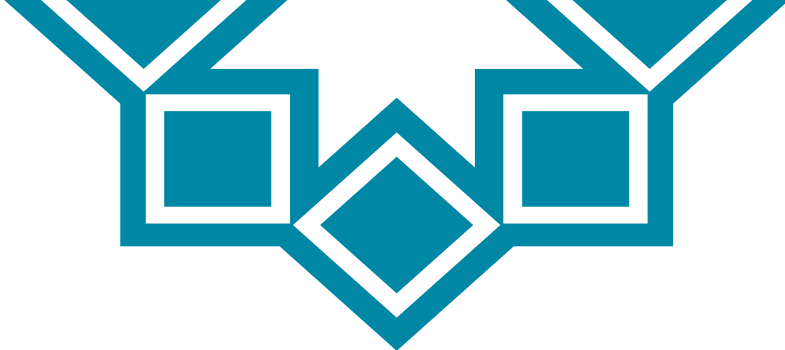
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ❸ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ❹

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ❺

أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ❻

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ❼





المحتويات

مقدمة الطبعة الأولى ١٣

في رحاب القرآن

١- كيف نعيش في أجواء القرآن؟ ١٩

لنكون قرآنيين ٢٠

حلول مشاكلنا في القرآن الكريم ٢٣

٢- كيف نتَّعظ بالقرآن؟ ٢٤

حجابان لا بد من اختراقهما ٢٤

القرآن ليس ككل الكتب الأخرى ٢٦

دعوة إلى قراءة القرآن من جديد ٣٠

٣- الكفر والشرك من وجهة النظر القرآنية ٣٢

الاختلاف في تحديد معنى الكفر والشرك ٣٣

- ٣٥ قدرة الإنسان الفائقة على الخداع
- ٣٧ الدراسة الموضوعية كفيلة بإزالة الخلاف
- ٣٨ طاعة الطاغوت مصداق للكفر
- ٣٩ المعنى الحقيقي للإسلام

٤- كيف نحوّل القرآن إلى سلاح فعال؟ ٤٣

- ٤٤ كيف نفهم باطن القرآن الكريم؟
- ٤٥ ضرورة معرفة قيمة القرآن
- ٤٧ القرآن سفير الله إلينا
- ٤٨ القرآن هدى للمتقين
- ٤٩ قراءة القرآن للعمل لا للرياء
- ٥٣ القرآن دواء أمراضنا
- ٥٣ لنتخذ من القرآن خليلاً لنا

التدبر في القرآن

١- كيف نفهم القرآن؟ ٥٧

- ٥٧ التعلّم للعمل
- ٥٩ العلم نور

٢- خطوات لفهم القرآن ٦٢

- ٦٢ أسلوب الاستفادة من الروايات

- الروايات تشرح الواقع الخارجي ٦٥
- القرآن واحتمالات التفسير ٦٦
- معان واحتمالات دقيقة ٦٩
- ٣- الشروط الغيبية لفهم القرآن ٧١
- الآثار المادية للإيمان بالله ٧١
- التحرر من العقد النفسية ٧٣
- الاتصال بالنور الإلهي ٧٤
- ٤- أهمية الروح العلمية في التدبر ٧٨
- كيف نربط القرآن الكريم بواقعنا؟ ٧٩
- نوعان من التفكير ٨١
- لنجعل تدبرنا في القرآن أكثر عمقاً ٨٣

بصائر القرآن في الجهاد

- ١- بصائر القرآن في الصمود ٨٧
- القرآن يفصل الأمثال ٨٨
- بصائر القرآن في العمل الرسالي ٩١
- الحذر من دور المنافقين ٩٤
- الثبات، القضية المركزية في الجهاد ٩٥

٢- بصائر القرآن في الصراع ٩٨

- ٩٨..... الصراع يزيد المؤمنين تماسكاً
- ١٠٠..... الابتلاء حصن الانتصار
- ١٠١..... برنامج الجهاد في القرآن الكريم
- ١٠٣..... واجبات ما بعد الانتصار
- ١٠٤..... إنشراح الصدر والعمل الرسالي
- ١٠٥..... ضرورة الاستمرارية في العمل

٣- بصائر القرآن في النصر والهزيمة ١٠٦

- ١٠٨..... القرآن يكشف عن الحقائق
- ١٠٩..... نصر الله
- ١١١..... التحزب والفئوية ينافيان النصر
- ١١٢..... الأنانية سبب كل هزائمننا
- ١١٣..... التشاور والانفتاح على تجارب الآخرين
- ١١٥..... لا بد من العودة إلى كتاب الله

٤- المعادلات السياسية في المنظار القرآني ١١٦

- ١١٦..... فلسفة الابتلاء
- ١١٨..... هدفان للإنسان المؤمن
- ١٢٢..... تفجير الطاقات الكامنة

الجهاد لا يعني القتال بالضرورة.....	١٢٤
الصبر وآثاره الإيجابية.....	١٢٦
الكفر ومعادلة سقوطه.....	١٢٧

بصائر الوحي ومسؤولية التطبيق

١- دور البصائر القرآنية في إصلاح أوضاعنا.....	١٣١
الرؤية الجاهلية للحياة.....	١٣٢
الرؤية القرآنية للحياة.....	١٣٣
الكون يرفض الطغيان.....	١٣٧
٢- السبيل إلى تطبيق القرآن على واقعنا.....	١٣٩
منهاج فهم تطبيق القرآن.....	١٤٠
أهمية معرفة الواقع.....	١٤١
مفاهيم تغيّرت مصاديقها.....	١٤٣
أهمية القرآن في فهم الحياة.....	١٤٦
٣- بصائر الوحي ومسؤولية التطبيق.....	١٤٨
القرآن الكريم بصائر وأحكام.....	١٤٨
هل في القرآن الكريم حل لمشاكلنا؟.....	١٥١
بين المسلمين وبني إسرائيل.....	١٥٢
الظلم إفراز المجتمعات الفاسدة.....	١٥٤

- ١٥٥ ضرورة التفتيش عن جذور الفساد.
- ١٥٦ نحن مدعوون إلى تحمل المسؤولية.
- ١٥٨ ٤- السبيل إلى تجاوز العجز الحضاري.
- ١٦٠ لا مفرّ من الموت.
- ١٦١ الإنسان العاقل من يتعظ بالموت.
- ١٦٢ الجهاد الحق.
- ١٦٤ واجب الحركات الإسلامية.

القرآن حكمة الحياة

- ١٦٩ ١- حِكَم القرآن.
- ١٦٩ القرآن كتاب حياة.
- ١٧٠ كيف ننتفع بالقرآن في حياتنا؟
- ١٧١ رأس الحكمة مخافة الله.
- ١٧٣ الأنانية مصدر الرذائل.
- ١٧٥ مفردات برنامج التغيير في القرآن.
- ١٧٥ ١- التوكل وروح الإقدام.
- ١٧٩ ٢- إستشارة ذوي الروح الشجاعة.
- ١٨٠ ٣- عدم تهويل الأخطاء البسيطة.
- ١٨٠ ٤- استقلالية الشخصية.

- ٥- مقاومة الإحباط ١٨١
- ٢- المنهج القرآني والعمل الرسالي ١٨٢
- الحقيقة القرآنية أعظم الحقائق ١٨٤
- تلاوة القرآن معين كل حكمة ١٨٥
- سورة (ق) والمعاني الجليلة ١٨٦
- الصراع سنّة تأريخية ١٨٩
- علينا أن لا نستعجل النتائج ١٩١
- المستقبل للإسلام ١٩٣
- التاريخ مدرسة كبرى ١٩٤
- ٣- القرآن منهج التكامل الإنساني ١٩٦
- قابلية التكامل في فطرة الإنسان ١٩٦
- الرواسب التي تمنع تقدم الإنسان ١٩٧
- دوامة التساؤلات الحائرة ١٩٨
- سبب تأخر المسلمين ٢٠٠
- القرآن الكريم موجهنا نحو التكامل ٢٠١
- ٤- القرآن والحقائق الكبرى ٢٠٥



مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الله سبحانه نوران؛ نور يتجلى في كتابه، ونور يفيض على قلب عباده الصالحين، فالقرآن الكريم نور الله في كلمات. وقلب المؤمن يعمر بنور اليقين الذي يفيض مباشرة من عند الله عليه.

وحين يلتقي النوران يتكامل العرفان، وهناك يشهد المؤمن حقائق الحق، كما لو أنها لؤلؤة شفافة فوق كفه يقلبها كيف يشاء.

والتدبر في آيات الله عند الذين اوتوا نور اليقين، هو ميعاد لقاء نور القلب بنور الرب.

وعندما ينظر المؤمن بنور الله في آيات الذكر، فإنَّ حدود المعرفة تصبح مترامية، وانبعاثاً من نقطة مركزة هي معرفة الله بالوحدانية وانتهاءً بكل ذرة

في هذا العالم الفسيح، يتشكل عرفان المؤمن شللاً متدفقاً من نور العلم. ولكي يوفر المؤمن في ذاته وسائل الاتصال بضياء القرآن فإن عليه تذكر البصائر التالية:

أولاً: أن يجتهد أبداً ليرتفع إلى درجة الانتفاع بالقرآن، لا أن يتمنى هبوط كتاب الله (حاشا لله) إلى مستواه. فإن لم تهتد بالقرآن فلا تُفسره حسب مستوى فهمك، ولا تضعه في حدود معارفك، ولا تقنط من فهمه، وابقِ في توتر الباحث وانتفاضة الطالب للحق حتى يفتح الله عليك نافذة على حقائق كتابه.

ثانياً: طهر قلبك من حجاب الخوف من معرفة الحق والتهرب من مسؤولياته، لأن القلب الخائف لا يستريح إلى الحق، وإنما المسلم له أتى كان هو الذي يفقهه ويبلغ نوره.

ثالثاً: التسليم للحق الذي يعرفه الإنسان سُلّم إلى معرفة الحق الذي يجمله ولذلك فإن الإجهاد في تنفيذ وصايا القرآن وسيلة لمعرفة المزيد من حقائقه.

رابعاً: حين تقرأ القرآن فرّغ قلبك من أية فكرة أو وسوسة، وتوجه إلى نور الكتاب مباشرة، فسوف تجد من فيضه موجات متلاحقة.

والكتاب الذي بين أيدينا أحاديث في التدبر في القرآن الحكيم صيغت

في صورة كتاب يُقدم للقارئ الكريم، عسى الله أن ينفع به من ألقى
السمع وهو شهيد.

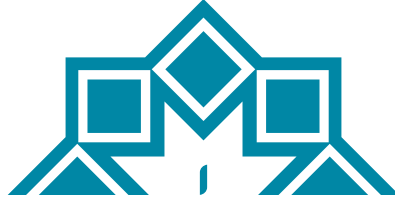
وأسأل الله المَنَّان أن يتفضل علينا بوعي حقائق كتابه واستيعاب بصائر
دينه، إنه ولي التوفيق.

محمد تقي المدرّسي

٥ / شعبان / ١٤١٤ هـ

فیه رحاب القرآن

- ۱- کیف نعيش في أجواء القرآن؟
- ۲- كيف نتعظ بالقرآن؟
- ۳- الكفر والشرك من وجهة النظر القرآنية
- ۴- كيف نحول القرآن إلى سلاح فعال؟



كيف نعيش في أجواء القرآن؟

من المؤكد أنّ نهم البطن، وعطش الكبد لا يضّرّان بالإنسان بقدر ما يضرّه نهم الروح وعطش العقل وحاجة الضمير، فأرواحنا تبحث دوماً عن برّد اليقين، وعقولنا ظمأى إلى العلم والمعرفة، ونفوسنا بحاجة إلى السكينة والاطمئنان.

إنّ القرآن الكريم هو مصدر هذه السكينة، وهو الكفيل بأن يروي ظمأنا وتعطشنا إلى العلم والمعرفة، وللأسف فإننا نعيش على شاطئ هذا الكتاب العظيم، وفي وسط رياضه ولكن البعد بيننا وبينه كالبعد بين الأرض والسماء، وإنها لمأساة كبرى علينا أن نبحث عن حل للقضاء عليها قبل فوات الأوان، فنحن نعيش كل يوم آلاف القضايا التي تضغط علينا باتجاه الحل ولكننا لا نعرف لها حلاً، وضمايرنا ملتاعة تبحث عن وجدان ديني يزيل اضطراب قلوبنا ولا نجد هذا الوجدان، فننهزم أمام

شهوأتنا ونعلم أننا قد انهزمنا، وأنه كان من المفروض أن لا نهزم، ونعلم أن البطولة هي في مصارعة النفس، وهكذا نظل ندور في هذه الدائرة المغلقة.

لنكون قرآنيين

إنّ الذي يعطينا القوة هو القرآن، والذي يغمرنا بالسكينة هو القرآن، فلماذا بيننا وبين هذا الكتاب هذه المسافة الطويلة؟ وكيف يمكن أن نختصر هذه المسافة لنصل إلى حقيقة فهمه؟

هذا هو السؤال العريض الذي ينبغي أن ندرسه بعمق في حياتنا، إنه يتمثل في كيفية وصول أكفنا إلى بحر القرآن لنغترف منه غرفة تشرّبها عقولنا الظامّة، وللإجابة عليه نقول: إنّ علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار الملاحظات التالية:

١ - أن لا يكون هدفنا من التدبر في القرآن الاستفادة الجزئية، فالذي يتخذ من القرآن وسيلة لتعلم بعض القضايا الجانبية التي قد تنفعه وقد لا تنفعه إنما هو إنسان سطحي، لأن القرآن الكريم بإمكانه أن يقدّم للإنسان ما هو أعظم من ذلك وأكثر قيمة، فالذين يتخذون من القرآن وسيلة لتزيين مكتباتهم، أو كحرز لهم، أو لاختبار أصواتهم إنما هم في الحقيقة كمثّل المرضى الذين يكتفون بالنظر إلى الطبيب دون أن يسألوه علاج

أمراضهم، فهم بحاجة إلى رؤى القرآن في مواقفهم الحياتية المختلفة، وبحاجة إلى يقين القرآن الذي يثلج صدورهم، ويزيد إرادتهم عزيمة، وبصيرتهم نفاذاً.

وبناء على ذلك عليك أن تحذر من التدبر في القرآن لتكتشف سبب نزول هذه الآية أو تلك. إنّ البعض تراهم وهم يقرؤون التفاسير يتغنون بأشعار الجاهليين، أو يحاولون البحث الاستطراذي في قضايا جانبية أخرى، في حين أنهم لا يبحثون في القرآن عن حلول لقضاياهم التي يعيشونها، فينهمكون في قضايا لا طائل من ورائها، فلنحذر أن نكون من أمثالهم، ولتدبر في آيات القرآن لنستلهم منها الدروس والعبر والبصائر لحياتنا، ولا يكن تدبرنا للقرآن في وقت خاص، وحسب المنهاج الذي نرسمه لأنفسنا، بل علينا أن ندع هذه الفرصة مفتوحة أمامنا، فكلما احتجنا إلى القرآن إنطلقنا إليه لنستخرج منه التعاليم التي نحتاج إليها.

٢- نحن لا نعلم متى نواجه موقفاً صعباً علينا أن نعالجه، فالاختبارات الصعبة تنزل على الإنسان كما تنقُص عليه الصاعقة، فهي تواجهنا في غفلة من الزمن، فهل أعددنا لها ذخيرة من الإرادة والعقل والإيمان؟ وكيف نحصل على هذه الذخيرة؟

إنّ مصدر الحصول عليها يكمن في العيش في أجواء القرآن، وذلك من

خلال حفظ آياته، والتدبر فيها، صحيح إنَّ العمل بآيات القرآن أفضل من حفظها، وصحيح إنَّ من يحفظ القرآن ولا يعمل به قد يكون أسوأ ممن لا يعرف آيات القرآن، ولكن حفظ القرآن هو وسيلة للتدبر في آياته، والعمل به، فالحفظ يجعل الآيات القرآنية تتفاعل مع نفسك، وتنسجم معها، ففي وقت الشدة من الممكن أن تتذكر آية، وفي موقف حاسم قد تنتبه إلى آية قرآنية.

٣- وإنني أوصي أن يهتم الجميع بشكل جدي بعملية حفظ القرآن، فنحن نحتاج إلى هذه الآيات، وفي هذا المجال يروي لنا التأريخ رواية طريفة عن فضة الجارية التي كانت تعيش في بيت فاطمة الزهراء عليها السلام، فقد كانت هذه المرأة تحفظ القرآن حفظاً جعلها لا تنطق خلال عشرين عاماً من حياتها إلا بآيات القرآن، فإذا سُئلت عن أسماء أبنائها قرأت آيات ترد فيها أسماء أنبياء تشابه أسماء أولادها فيعرف المستمع من خلال الآيات أن أسماء أولادها كذا وكذا، وإذا سُئلت عن المكان الذي تذهب إليه، قرأت آية الحج... وهكذا فإنها كانت لا تتحدث في أي جانب من جوانب حياتها إلا بآيات القرآن .

وبالطبع فإننا قد لا نستطيع أن نصل إلى مستواها، فلتكن أحاديثنا -على الأقل - مزوجة بآيات القرآن، لكي تكون أفكارنا متفاعلة مع بصائر

القرآن من خلال حفظ الآيات القرآنية، فلنحاول ونحن متوجهون إلى أعمالنا، أو عائدون إلى بيوتنا، أو في أي وقت آخر، أن نقرأ القرآن ونحفظ آياته، وعندما تواجهنا مسألة دينية أو غيرها لا نعرف حلها علينا، قبل أن نسأل أحداً، وقبل أن نبحث عن جواب لإشكالنا في بطون الكتب، أن نبحث عن الحل في آيات القرآن الكريم.

حلول مشاكلنا في القرآن الكريم

إنني أدعو إلى الإستلهام من القرآن الكريم في قضايانا المختلفة، وفي المعاضل التي تواجهنا، فإننا لا بد أن نقع على الآية التي تحل لنا هذه القضايا والمشاكل وكأنها نزلت خصيصاً لنا، لنجرب ذلك وعندئذ سنكتشف أننا من الذين يعيشون العطش الشديد وهم على شاطئ الأنهار العذبة، ويعيشون الجوع وهم في وسط الحقول الخضراء، والبساتين المثقلة بأنواع الثمار والفاكهة، فالقرآن هو روضة ولكن الإنسان بحاجة إلى بطاقة دخول، وبطاقة الدخول هذه تتمثل في أن نجلس بين يدي القرآن بروح متفتحة، وعقل واع، ثم نتلو آياته الكريمة مستوحين منها البصائر لحياتنا، والأنوار التي تضيء جنباتها المظلمة، والحلول لجميع المشاكل التي تواجهنا.



للقرآن الكريم جانبان ينبغي التوجه إليهما؛ الأول هو الجانب العلمي والعقلي حيث لا بد أن نتَّبع منهاج التدبر لكي نصل إلى معارف القرآن، والجانب الثاني هو الجانب النفسي والروحي الذي يمثل جانب الاتعاظ والاستفادة الروحية من القرآن الكريم.

حجابان لا بد من اختراقهما

ولكي نعرف هذا المنهج لا بد أن نعرف إنَّ بين الإنسان وبين القرآن حجابين لا بد من اختراقهما:

١ - حجاب الهوى النفسي، حيث يصعب على الإنسان أن يصدِّق أن ما يقوله القرآن يعنيه بصورة خاصة، فالإنسان عادة يقر بأن الموعظة حق، ولكن ليس له وإنما للآخرين.

٢ - حجاب كيفية تمثُّل الحقيقة القرآنية في ذات الإنسان، فالقرآن مثله

كمثل الشمس، ومثل قلوبنا كغرفة مغلقة، فكيف نفتح نوافذ هذه الغرفة على أشعة الشمس لكي تشرق عليها؟

عندما يحدثنا القرآن عن قصص الأمم السابقة فإنه يبينها كحقائق عامة، وأفكار شاملة، فكيف أحول هذه الحقائق والأفكار العامة والشاملة إلى قضية تهمني، وتتصل بي بشكل مباشر؟ وتعبير آخر: كيف أجعل الآية القرآنية تعينني وتقصدني لكي أنتفع بها؟

هناك قواعد فقهية عامة كقول النبي ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارٌ»^١. وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لَا يُتْرَكُ الْمَيْسُورُ بِالْمَعْسُورِ»^٢، وهي قواعد عامة أطبقها فيما يخصني، فعلى سبيل المثال: إذا جُرحت يدي ووضعتُ عليها مادة عازلة فماذا أصنع في هذه الحالة إن أردت الموضوع؟ هنا أعود إلى القاعدة العامة فأطبقها على وضعي الخاص فأمسح على المادة العازلة لأن الأصل أن الله تعالى لم يجعل علينا في الدين من حرج، وهكذا عليّ أن أحول القانون العام إلى حقيقة خاصة؛ أي أن أبحث له عن مصداق يتصل بي.

وهكذا الحال بالنسبة إلى السنن الإلهية في القرآن الكريم كسنة التكذيب بعد الإنذار، فإذا كان الإنذار واضحاً وجاء التكذيب بعده صريحاً فإن العذاب واقع لا محالة، كما حدث بالنسبة إلى قوم ثمود حيث بعث الله

١- وسائل الشيعة، ج ١٢، كتاب التجارة، أبواب الخيار، الباب ١٧، ح ٣، ص ٣٦٤.

٢- عوالي اللآلي، ج ٤، ص ٥٨، ح ٢٠٥.

تعالى لهم الناقة مبصرة فلما كذبوا بها وعقروها نزل عليهم العذاب، لأنَّ الله أتم الحجة عليهم؛ أي إن الحجة أصبحت واضحة ولكنهم مع ذلك كفروا بها فجاءهم العذاب، وهذه سُنَّة إلهية.

ترى كيف نطبق هذه السُنَّة الإلهية على أنفسنا؟ يجب علينا أن نطبقها إذا كنَّا على خطأ ثم جاء من ينذرنا بهذا الخطأ، وكان المنذر هذا واضحاً وصريحاً في إنذاره، وفي هذه الحالة علينا إذا ما لم نكف عن خطئنا أن نكون في انتظار العذاب.

القرآن ليس لكل الكتب الأخرى

ولذلك لا يجوز لنا أن نقرأ القرآن كما نقرأ أي كتاب آخر، بل لا بد أن نقف عند كل آية منه ونحاول أن نطبقها على أنفسنا، فالقرآن الذي لا تطبقه على نفسك، ولا تتعظ بآياته لا يمكن أن ينفعك بشيء، ونعوذ بالله أن نكون ممن تنطبق عليهم الآية التي تقول: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^١.

فالقرآن شفاء ولكن للمؤمنين، أما الظالم فلا يزيده إلا استكباراً وضلالاً، وقد كان قوم نوح من هذا النمط كما يحدثنا نوح ﷺ عنهم قائلاً:

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾^١ رغم أنه قد دعاهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً.

ومن الأمور التي تُذكر في سورة نوح الكريمة فكرة أنَّ الجزاء حق، وأنَّ البعث بعد الموت حق، فلماذا ينكر الإنسان البعث بعد الموت، هل لدليل عقلي أم لا؟ الأدلة العقلية والفطرية والوجدانية متوافرة على أن الإنسان لا بد أن يُبعث بعد الموت، ولكن الحالة النفسية عند الإنسان تُملي عليه أن لا يصدق بالبعث على اعتبار أن هذا التصديق سوف يفرض عليه مجموعة كبيرة من الالتزامات التي لا يريد أن يقيّد نفسه بها، ولنفس هذا السبب فإنَّ الإنسان ينكر الموت نفسه رغم أنه يؤمن به نظرياً، فهل يصدق الواحد منّا أنه سيموت بالفعل وهو يمتلك عيناً تنظر، وأذناً تسمع، ويداً تبطش، ورجلاً تتحرك وأعضاء جسمه كلها تعمل وفق المستوى المطلوب؟ ولكنَّ الحقيقة أن هذا الإنسان يمكن أن يموت في أي لحظة لسبب بسيط، فنحن لا نعرف هل إنَّ أسماءنا مكتوبة غداً ضمن الأحياء أم الأموات؟

إنَّ الموت هو مجرد لحظة واحدة يمر بها الإنسان ليذهب إلى عالم لا عودة منه، عالم لا أحد يعرف ما يجري فيه على الإنسان، وبالطبع فإننا

نذكر الإنسان الميت بالخير أو بالشر حسب سيرته، ولكن كلامنا يختلف عما هو عند الملائكة، فهي تمتلك سجلات أحصيَ فيها عدد أنفاس الإنسان، وقطرات الماء الذي شربه، وذرات الطعام الذي أكله، بل وحتى الهواجس في ذهنه وأفكاره ونياته، فالله تعالى يقيس حتى نية الإنسان، فهو لا يعرف وزن الهواء والضيء والريح فحسب بل إنه يعرف أيضاً وزن النية والإرادة.

ومع كل تلك العبر والمواعظ البالغة فإننا سرعان ما نرجع إلى غفلتنا، فنحن لا نصدق عملياً بالموت رغم أنه يمثل حقيقة قريبة منا نعيشها كل يوم كما يقول الشاعر:

وإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

فإذا كنّا لا نصدّق بالموت الذي نراه كل يوم، فهل من المعقول أن نصدّق بالبعث الذي لا نراه؟ هذا في حين أن الذي يصدّق بالبعث لا بد أن يصدّق بالموت وكفى بالموت واعظاً، والذي يصدّق بالموت سيدرك أن هناك حياة بعد الموت لا تصلح إلّا للعمل الصالح، فالمؤمنون الذين يعرفون الموت هم الواعون، أما غيرهم فإنهم لا يمتلكون الوعي لأنهم لا يدركون الموت ولا يوقنون به، لأنهم محبوبون عن فهم هذه الحقيقة؛ ولأنهم لا يستوعبونها، فمن الصعب على الواحد منهم أن يصدّق أنه سيقع

في يوم من الأيام بيد ملك الموت، ثم يحملونه وهو لا يشعر، ويضعونه في حفرة القبر وهو لا يحس.

وفي مقابل ذلك فإن الذي يستوعب الموت، ويعي هذه الحقيقة المرة فإنه سيستوعب الحياة بقدر استيعابه لها، فيدرك هل أن لهذه الحياة قيمة أم لا، وعلى سبيل المثال فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبي نوحاً عليه السلام عاش ألفي سنة وخمسمائة سنة - إلى أن تقول الرواية - :

«ثُمَّ إِنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ جَاءَهُ وَهُوَ فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَرَدَّ عَلَيْهِ نُوحٌ عليه السلام، قَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: جِئْتُكَ لِأَقْبِضَ رُوحَكَ، قَالَ: دَعْنِي أَدْخُلْ مِنَ الشَّمْسِ إِلَى الظِّلِّ، فَقَالَ لَهُ: نَعَمْ، فَتَحَوَّلَ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ، كُلُّ مَا مَرَّ بِي مِنَ الدُّنْيَا مِثْلُ تَحْوِيلِي مِنَ الشَّمْسِ إِلَى الظِّلِّ، فَأَمُضْ لِمَا أَمَرْتَ بِهِ»^١.

لقد كان نوح عليه السلام يفهم الحياة، فقد عاش ألفين وخمسمائة عاماً ولكنه لم يثق بها، ولم يطمئن إليها، في حين أننا لا نعرف هل نعيش سبعين سنة أم لا، ومع هذا ترانا بنبي ونجمع، نحن لا نعرف كم سنبقى ومع ذلك نتشبث بالحياة، ونتصور أنها سوف تستمر معنا، فإلى متى الغفلة؟ سوف نصحو في ذلك اليوم ولكن دون جدوى، فتعالوا نستغل الفرصة،

ونحذف الحجب التي تحجبنا عن القرآن الكريم، هذه الحجب التي تتمثل - كما ذكرنا - في حجابين رئيسيين هما: حجاب هوى النفس؛ أي عدم التوجه إلى الحقائق التي تخصنا، وحجاب عدم تطبيق القواعد والسنن العامة في القرآن الكريم على واقعنا كأشخاص.

دعوة إلى قراءة القرآن من جديد

فلنقرأ القرآن من جديد، صحيح إنَّ ما قرأناه من القرآن كان ينفعنا إلى مستوى الوصول إلى التدين العادي، ولكن لنحاول أن نصل إلى مستويات أعلى، فالمستوى العادي يجعلنا نخلط الحلال ببعض الحرام، ويجعلنا لانعي المسؤوليات، والإنسان الذي يكون في هذا المستوى سوف يقف طويلاً للحساب يوم القيامة.

فتعالوا منذ هذه اللحظة وقبل أن تنعى إلينا أنفسنا نبدأ بقراءة القرآن قراءة جديدة، فالآيات القرآنية من شأنها أن تصنع إنساناً مثل سلمان، وأبي ذر، وعمار، وغيرهم من عظماء التاريخ، ولنحاول أن نكثر من قراءة سورة نوح، فالذي يقرأ هذه السورة سيشعر أنَّ في داخله قدراً من الكبر والاستكبار على الحق، فنحن أيضاً عندنا إصرار على الكفر والضلالة والعادات السيئة رغم النصائح والتحذيرات التي توجه إلينا، فنغفل كما فعل قوم نوح الذين يقول عنهم الخالق تعالى على لسان هذا النبي:

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأُصْغَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾^١.

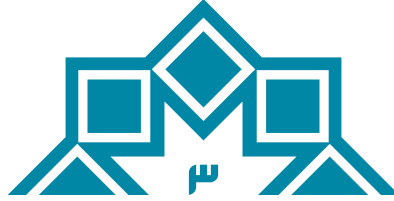
وهذه الحالة موجودة عندنا جميعاً، ففي كثير من الأحيان يتخذ أحدنا موقفاً ممتعضاً عندما يأمره الآخرون بالمعروف وينهونه عن المنكر، فتراه يبادر إلى تكذيبهم قبل أن يتكلموا معه، أفليس هذا السلوك تحدياً للقرآن؟ إذا كنت تتصور أن باستطاعتك أن تتحمل نار جهنم فاحرق أصابعك بالكبريت ولو مرة واحدة، فكيف بنار جهنم التي تأنّ منها الشمس على حراراتها؟

إن علينا أن نستشعر الخوف والخشوع والوجل عندما نستمع إلى آيات القرآن الكريم كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^٢.

فلنترك جانباً الصفات الأخلاقية الذميمة كالحقد، والحسد، والتباغض، والغيبة، ولنعش أجواء القرآن الكريم، ورحابه التي ترفع النفس الإنسانية إلى مستويات الطهر والنقاء وذلك من خلال الاتعاظ بآياته، وتطبيق مضامينها على حياتنا العملية لكي نستطيع بذلك تجاوز مرحلة الموت بتفوق ونجاح حيث تكون جنان الله ونعمه التي لا تعد ولا تحصى بانتظارنا.

١- سورة نوح / ٧.

٢- سورة الأنفال / ٢.



الكفر والشرك من وجهة النظر القرآنية

إنّ الكلمات القرآنية التي هي محور التشريع الإسلامي، ومنار البصيرة الرسالية، ومصنع الإيمان الخالص يجب أن تُفسَّر وفق السياق القرآني ذاته وما نستنبطه منه، ومن أبرز الكلمات التي تُعتبر مفتاحاً لفهم القرآن، ومدخلاً لفهم الحياة هي الكلمات التي تؤكد عليها آيات القرآن الكريم، وتجعلها محوراً لسائر الأفكار والتشريعات، ومنها كلمة الشرك، والكفر، والفسق، والطاعة، والتقوى.

وقد تلخصت رسالات الأنبياء في هذه الكلمات، إذ أنها تنهى الناس عن الشرك والكفر أساساً، وعن الفسق والفجور أحياناً، وتؤكد على تقوى الله وطاعة رسوله، كما نلاحظ ذلك في آيات سورة الشعراء.

والسؤال الذي يُطرح هنا، والذي هو في ذات الوقت سؤال أساسي

وخطرير هو: ما معنى الشرك؟ وما معنى الكفر؟ فعندما نعرف معنى هاتين الكلمتين الأساسيتين، يتّضح لنا أيضاً معنى كلمتي الطاعة والتقوى على طريقة معرفة الأشياء بأضدادها.

إنّ القرآن الكريم لا يطلق كلمة الكفر على الجحود بالله تعالى مباشرة، وكلمة الشرك على الخضوع والسجود المباشرين للأصنام البشرية أو الحجرية، بل إن كلمة الكفر في القرآن الكريم عادة ما تأتي لبيان الجحود العملي والسلوكي لله تعالى؛ أي أن يدعي الإنسان الإيمان بالله وعبادته ولكنه يخالف هذه الفكرة عملياً وتشريعياً وسلوكياً، ويسير في الطريق المغاير لها.

والشرك عادة ما يُطلق في كتاب الله على عبادة الأصنام، والخضوع للطغاة، والعبادة في القرآن تُطلق بدورها على الخضوع والتسليم سواء كانا في نمط السجود والركوع، وتقديم القرابين للأصنام، أم في نمط الخضوع التشريعي والسلوكي.

الاختلاف في تحديد معنى الكفر والشرك

وقد اختلف علماء المسلمين في معنى الكفر والكافر، فقد أبدوا آراءً مختلفة في هذا المجال، فقال بعضهم إنّ الكافر هو من يترك أي فريضة من الفرائض الإلهية، كتارك الصلاة والصوم والحج وما أشبه ذلك.

وقال البعض الآخر؛ بل هو الجحود المباشر والعلني لوجود الله سبحانه، فمن أعلن عدم إيمانه بالله فهو كافر، ومن لم يعلن فهو مسلم سواء وافق قوله فعله أو لا.

وقد إستند كل فريق من هذين الفريقين في كلامه إلى دليلين؛ عقلي ونقلي، فالذي رأى إن الكفر هو ترك أي عمل من الأعمال الواجبة يدعم برهانه بالآية القرآنية التي تقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^١، وما شابهها من آيات، كما استندوا إلى قاعدة أن فائدة الإيمان وروحه هما العمل، فإذا فقد الإنسان العمل فماذا ينفعه إيمانه؟ وكيف نستطيع أن نسميه مؤمناً؟

وهناك دليل آخر وهو ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الإيمانُ ما وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ وَصَدَّقْتُهُ الْأَعْمَالُ»^٢، وجاء في حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام: «الإيمانُ عَقْدٌ بِالْقَلْبِ، وَكُفْظٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ»^٣.

هذا في حين استند الفريق الثاني الذي قال إن الكفر هو الجحود اللفظي لوجود الله، إلى مجموعة أدلة ونصوص، منها: قول النبي ﷺ: «الإسلامُ مَا جَرَى عَلَى اللِّسَانِ»^٤، ومضمون مجموعة من الروايات بأن من شهد

١- سورة آل عمران / ٩٧.

٢- بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٠٨.

٣- معاني الأخبار، ص ١٨٦، و: عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ٢٠٥.

٤- بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٢٠٨.

الشهادتين فهو مسلم^١، كما جاء عن الإمام الباقر عليه السلام: «الإسلام إقرارٌ بِلَا عَمَلٍ»^٢.

وعلى هذا فإن من ينطق بالشهادتين ولا ينكرهما إنكاراً مباشراً فهو مسلم على رأي هذا الطريق، كافر على رأي الفريق الآخر، وفي الواقع فإن النصوص الشرعية، والأدلة العقلية متشابهة في هذا الموضوع المشكل المعقّد، والسبب في ذلك أنّ هوى الإنسان ومصالحه تحدّوه إلى أن يدّعي إنّ الكفر ليس إلّا مجرد الجحود اللفظي لوجود الله سبحانه وتعالى، حتى يريح نفسه من وصمة الكفر، وعار الشرك، ويجعل الآيات القرآنية والنصوص التي تبحث في الكفر بعيدة عنه، متوجهةً إلى أولئك الذين يعبدون الأصنام الحجرية مباشرة، فهؤلاء هم الكفار والمشركون، أما نحن فمسلمون والله الحمد!

قدرة الإنسان الفائقة على الخداع

إنّ شهوة الإنسان تأخذ مجراها في قنوات ذاته بشكل طبيعي لا ريب، فلإنسان قدرة فائقة في المخادعة حتى مع ذاته، فإن لم يؤد فرائضه الدينية فإنّ هناك قوتين في نفسه؛ قوة تلومه على ما فعل وهي المسماة بـ «النفس اللوامة» بالمنطق القرآني، وقوة أخرى تُبرّر له ما عمله وما يعملُه وما

١ - راجع: بحار الأنوار، ج ٦٥، كتاب الإيمان والكفر، باب الفرق بين الإيمان والإسلام.

٢ - تحف العقول، ص ٢١٧.

سوف يعمله، فتراه يريح ضميره الإيماني بشتى الوسائل، وهذه القوة هي التي تُسمى في لغة القرآن بـ «المُسَوِّلة»، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾^١.

فالنفس تُسَوِّلُ العمل القبيح للإنسان، وتجعله بشكل يُريح الإنسان، ففي داخله جهاز خلاصه من العذاب النفسي حينما يُعَذَّب، يفصل هذا الجهاز بين الألم النفسي وبين الإنسان، فالإنسان الذي يشعر بمهانة في ذاته تحدث عنده حالة الإيحاء لنفسه بأنه كبير وجبار، فتحدث عنده حالة الكبر التي هي رد فعل لحالة الصغر، ومُرْكَبُ النقص، وهذا هو التبرير وخداع النفس، وقد أشار إلى ذلك تعالى في قوله:

﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾^٢.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾^٣.

وهذا هو الخداع الذاتي الذي أكدت عليه النصوص الإسلامية، حيث يحاول الإنسان بكل جهده تفسير الآيات والأحكام والتشريعات بما لا يتعارض مع أهوائه وشهواته وما فعله وارتكبه سابقاً، لكي لا تصدق عليه حالة الشرك والكفر.

١- سورة طه / ٩٦.

٢- سورة البقرة / ٩.

٣- سورة النساء / ١٤٢.

إنَّ أي فرد منّا يسعى ليكون أفضل المطيعين، وأخلص المتقين لكي يُبقي الشرك والكفر بعيدين عنه، وهذه حالة نفسية تجعل هذا الموضوع (موضوع تحديد الكفر والشرك) شائكاً ومعقّداً، فحتى لو كانت الآيات والأدلة العقلية واضحة في هذا المجال لحاولنا إبعاد هذا الوضوح، ولشوَّشنا عليه بصورة أو بأخرى.

الدراسة الموضوعية كفيّة بإزالة الخلاف

بعد هذه المقدمة نقول: إن ذلك التقصير المصطنع في استخراج الأدلة الواضحة التي تحدد موضوع الكفر والشرك، والتقوى والطاعة، لا بد أن يزول عند إطلاق النفس من ضغط الهوى، ودراسة القضية دراسة موضوعية.

إنَّ الكفر - في الواقع - ليس فقط الجحود اللفظي، والآيات القرآنية شاهدة على ذلك؛ فهناك الكثير من الآيات تحمل هذا المضمون كقوله تعالى وهو يتحدث عن الكفار: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^١.

والقرآن يذكر دوماً أنَّ الإنسان إذا ما أترف وعاش في النعمة فإنه ينسى ربه، ويكفر به، وعلى العكس فإنه إذا ما وقع في أزمة أو ورطة فإنه يسارع

إلى اللوذ بالخالق تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^١.

كل ذلك يدل على أَنَّ فئة قليلة من الناس تجحد بالله ذلك الجحود اللفظي المباشر، فلو افترضنا أَنَّ القرآن نزل على هذه الفئة القليلة لعزلها عن المجتمع.

طاعة الطاغوت مصداق للكفر

وقد تضمّن القرآن الكريم علاج هذه المشكلة النفسية والعقائدية والتشريعية المتجذّرة عند أغلب الناس المؤمنين بالله لفظاً، فالجحود اللفظي ليس هو الكفر بمعناه الصحيح، فالكفر هو في الحقيقة إما ترك التشريع الإسلامي إلى غير الإسلامي، أو ترك القيادة الإسلامية واتّباع غير الإسلامية، وهذا هو الكفر أو الشرك إذ لا فرق بينهما، فإذا أهملنا التشريع الإسلامي بمجمله، ومضينا إلى تشريع آخر نرسم به خارطة حياتنا، فإننا يجب أن نضع أنفسنا سلفاً في خانة الكفار والمشرّكين بالله، وعلى العكس من ذلك فإنّ قبولنا للتشريع الإسلامي كنظام متكامل،

وإذعاننا للقيادة الإسلامية الصحيحة يعينان إستحقاقنا أن نُكْتَبَ في قائمة المؤمنين.

ونحن لا نقصد هنا أن الذي يترك الصلاة هو كافر في كل الأحوال، كما قال الفريق الأول، فهذا غير صحيح لأن الذي يترك الصلاة وهو يؤمن أنها واجبة ومن دون أن يؤدي تركه للصلاة إلى إنكار الرسالة فليس بكافر بل هو فاسق، ولكن الذي يترك الاقتصاد الإسلامي، ويدّعي عدم وجود نظام اقتصادي في الإسلام، أو الذي يهمل النظام الاجتماعي الإسلامي، مبرراً ذلك بأفضلية النظام الغربي أو الشرقي، أو الذي يعرض عن قانون الأحوال الشخصية في الإسلام ويركن إلى إتباع الغرب أو الشرق في هذا المجال، فهو الكافر حقاً بالإسلام.

والذي يترك القيادة الإسلامية، ويتجه إلى قيادة الجبت والطاغوت هو كافر بلا ريب، في حين أن الذي لا يطيع القيادة الإسلامية الرسالية المنبثقة من روح التعاليم الإلهية في أمر معيّن فإنه لا يعدو كونه مشركاً شركاً خفياً أو فاسقاً.

المعنى الحقيقي للإسلام

إنّ تلفظ كلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» لا تعني معناها الظاهري بل إنها تقتضي من الإنسان أن يعرض عن أيّ ولي أو قائد أو مشرّع سوى الله تعالى، فهي

تعني قبول القيادة الإسلامية، وفي إطار هذا القبول تُغفر له الذنوب إن تاب، أما مَنْ يدّعي أنّ الزنا حلال، وأنّ معاملات الربا التي تكون عبر البنوك الربوية والنظام الرأسمالي حلال، فإن هذا الإنسان ليس ممن يقر بـ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» عملياً، بل هو ممن يؤمن بالوهية النظام الرأسمالي أو الشيوعي من دون النظام الإسلامي.

يقول تعالى في تحديد معنى الشرك وحدوده:

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^١.

إنّ نظرة خاطفة إلى هذه الآيات تكشف لنا عن المعنى الحقيقي للشرك، فبعد أن يذكر الأحكام الشرعية يبين القرآن الكريم في البدء بقوله: ﴿فَإِنْ

كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾
ثم يقول في آية أخرى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا
ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾، ونتابع مع سياق الآيات قوله تعالى: ﴿وَهُمْ
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

ومثل هذه الآيات كثيرة الورد في القرآن الكريم كالأية التي تقول:
﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا
أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^١.

وقد جاء في تفسير الرازي الذي هو من كبار المفسرين قوله: «الأكثر من
من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة
العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم»^٢.

روى الثعلبي بإسناده عن عدي بن حاتم قال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ
وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يَا عَدِيُّ! اطْرَحْ هَذَا التَّوْتَنَ مِنْ
عُنُقِكَ». قال: فطرحتة، ثم انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة البراءة
هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾^٣ حتى فرغ
منها، فقلت له: إنا لسنا نعبدكم! فقال: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ

١- سورة التوبة / ٣١.

٢- تفسير الرازي، ج ١٦، ص ٣٧.

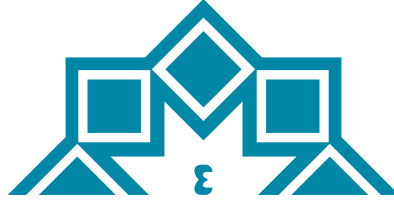
٣- سورة التوبة / ٣١.

فَتَحَرَّمُوهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّوهُ؟ قال: فقلت: بلى. قال: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»^١.

ويعلق بعض المفسرين على الآية بقوله: «وجملة القول إن الله تعالى أنكر في كتابه أن يقول الإنسان - حسب رأيه وفهمه - هذا حلال وهذا حرام»، وهذا أيضاً ما يقوله الفخر الرازي الذي هو حجة في نقله عن أغلب المفسرين المسلمين في عصره.

ففي ذلك العصر عرف المفسرون المسلمون المعنى الحقيقي للآية السابقة، والمعنى الحقيقي للشرك الذي تقع التقوى في قبale، والتي تعني الإيمان بألوهية الله تعالى في التشريع، والتصميم على قبول أي تشريع صادر من الله، أما الطاعة فهي قبول النظام السياسي للقيادة الإسلامية الرسالية، أي قبول قيادة النبي ﷺ، والأئمة من بعده عليه السلام.

إنَّ الطاعة والتقوى يمثلان الهدفين الذين كانت تستهدفهما رسالات الأنبياء، فالتقوى في مقابل الكفر، والطاعة في مقابل الشرك.



كيف نحول القرآن إلى سلاح فعال؟

كيف يستطيع الإنسان إختراق دفاعات الأعداء، وتحطيم الحصار المفروض على نفسه وعلى عقله ومعارفه؟

لا ريب إنّ أمضى الأسلحة يتمثل في العقل المضاد للهوى، والعلم المضاد للجهل، والهدى المقابلة للضلالة، وهو أيضاً القرآن الذي يجار إليه الإنسان عندما تشتد به الفتن، والذي يتلوه الإنسان المؤمن عندما يجد نفسه تكاد تنهار، ويستعيد به المجتمع الإسلامي عندما يرى نفسه محاصراً من قبل الأعداء.

إنّ هذا القرآن هو ذلك المنجي، وذلك الكهف والمأوى والنور والضياء، وهو سلاحك ضد عدوك الداخلي الذي هو الشيطان والنفس الأمّارة بالسوء، وضد أعدائك في الخارج، فالسلاح الماضي هو هذا السلاح الحاسم القوي المقتدر.

وللأسف فإننا قد لا نستطيع في بعض الأحيان الاستفادة من هذا السلاح والانتفاع به، فالقرآن بين أيدينا ولكن الشيطان في أنفسنا، وغشاوة الهوى على أبصارنا، وبلادنا مقهورة؛ تتبع الآخرين، وتطيع الطغاة، والذلة على رؤوسنا، فكيف يمكن لنا ونحن مع القرآن أن نعيش التمزق دون الوحدة، والاختلاف دون الاتحاد؟ وما هي العقبة التي لا تدعنا نستفيد من القرآن كأشخاص في مجال تزكية الذات، واستقلال الأمة؟

كيف نفهم باطن القرآن الكريم؟

وبالإضافة إلى تلك التساؤلات هناك تساؤل مهم آخر يطرح نفسه وهو: كيف نحصل من آيات القرآن على تلك المعاني التي ينبغي لنا وعلينا أن نحصل عليها منه؟ فنحن نقرأ القرآن المرة بعد الأخرى ولكننا لا نستطيع أن نقرأ ما وراء السطور، ولا نستطيع أن نفهم باطن القرآن، وحتى لو راجعنا التفسير فإننا لا نحصل على مزيد من المعلومات.

وقبل أن نجيب على تلك التساؤلات نقول: لو أننا استطعنا أن نخترق الحجاب الفاصل بيننا وبين القرآن إذن لانتهدت مشاكلنا مع أنفسنا، فنتنفع حينئذ بالقرآن في مجال إصلاح الذات، كما أن مشكلتنا مع الأعداء ستنتهي هي الأخرى لأننا سنجعل القرآن راية نحارب تحتها، ونجعله

ضياء نجاهد على هداه، وسترأ بيننا وبين العدو، ولكن المشكله كل المشكله تتمثل في أننا لا نكاد نفهم القرآن، ولا نكاد نتدبر في آياته وكأن بيننا وبينه حجاباً مستوراً.

إن اختراق هذا الحجاب هو الهدف الأول الذي ينبغي علينا أن نحققه، فكيف نخترق هذا الحجاب؟ وكيف نحول القرآن إلى سلاح ضد أهوائنا وشهواتنا وضد كل من يريد استعمارنا واستغلالنا؟

ضرورة معرفة قيمة القرآن

للإجابة عن هذين التساؤلين المترابطين لا بد أن نقول قبل كل شيء: إننا يجب علينا أولاً أن ندرك ونعرف قيمة القرآن، فمن حفظه وقرأه دون معرفة مسبقة به فإن هذا القرآن سوف لا يعطيه شيئاً، فالذي يجهل حق القرآن فإن القرآن سيجهله وينساه بدوره، بل إن هذا الكتاب سوف يتحول إلى ضلالة بالنسبة إلى من يجهل حقه، كما يشير إلى ذلك تعالى في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^١.

أما بالنسبة إلى المؤمنين فإن القرآن شفاء وضياء ونور وهدى، فهم يزدادون إيماناً وتقوى بالقرآن ولكنه بالنسبة للآخرين ضلالة وحجاب وخسارة وتوغل في الفساد، لأنهم لم يعرفوا القرآن، فالذي يأتي إلى إمام

من الأئمة أو رسول من رسل الله وهو لا يعترف بإمامته أو نبوته فمن الطبيعي أنه سوف لا يكتسب من هذا الإمام أو الرسول أي هدى بل سيزداد ضلالة بدل أن يزداد نوراً وهدى لأنه لا يعترف بهذا الإمام أو الرسول. والتأريخ يشهد لنا بهذه الحقيقة فقد كان حول الرسول ﷺ منافقون بنص القرآن الكريم ومع ذلك فقد كانوا بعيدين للغاية عن هدى الرسول رغم أنه كان يعيش بين ظهرانيهم.

وهكذا الحال بالنسبة إلى القرآن فإننا عندما نتلو آياته في حين أننا لا نعرف ما هو، وكيف هو، وما هو حقه علينا، وواجبنا نحوه، فإننا سوف لا نزداد بقراءة القرآن إلا بُعداً عنه.

وقد أكد نبينا ﷺ كثيراً على قيمة القرآن وعظيم منزلته قُبيل إلحاقه بالرفيق الأعلى قائلاً: **«إِنِّي نَارِكُ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعِترَتِي أَهْلَ بَيْتِي»**، ولا يفوته ﷺ أن يؤكد أن أحدهما أعظم وأكبر من الثاني ألا وهو كتاب الله الذي استشهد أهل البيت  من أجله^١.

إنّ علينا ونحن بين يدي القرآن أن يغمرنا الإحساس بأننا بين يدي رسول الله ﷺ، فلو شعرت وأنت تجلس أمام القرآن لتقرأه بأنك جالس أمام قدوتك، وأمام المثل الأعلى لحياتك، والمعلم الأكبر، إذن لاستطعت

١ - دعائم الإسلام، ج ١، ص ٢٨، وسائر كتب الحديث للرفيقين، منها: مسند أحمد بن حنبل، ج ٣، ص ١٣ و ١٤، و: سنن الترمذي، ج ٥، ص ٦٦٢.

الانتفاع بالقرآن، ولكنك عندما تجلس أمام القرآن، أو أن يُتلى عليك في المجالس ثم لا تنتبه، ولا تصنع السمع إلى آياته فكيف تتوقع أن يمنحك القرآن من إفاضاته؟

القرآن سفير الله إلينا

إنّ القرآن قبل كل شيء يفسّر نفسه بنفسه، ويُعرّف نفسه بنفسه، فهو سفير الله تعالى إلينا، فمن المستحيل أن يوجد شخص يعرف حق القرآن ثم لا يفهم آياته، فإن كنت مؤمناً فإنك لا تملك إلا أن تزداد إيماناً بتلاوة القرآن الكريم كما يقول تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾^١، أما إذا لم تزد إيماناً فلا بد أن تبحث عن الحجاب الذي يفصلك عن القرآن لتعود إلى آيات الله.

وعلى هذا فإنّ أول هدف يجب أن نصل إليه هو خرق الحجاب الفاصل بيننا وبين القرآن، ونحن لا نستطيع أن نخترقه إلا بإيماننا الأكيد بحق القرآن، فما هو حق القرآن علينا، وما هو واجبنا تجاهه، بل ما هو القرآن أساساً؟ إنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإذا ما داخلنا أدنى ريب فيه فإن هذا الريب سيجعلنا بعيدين عنه لأنّ القرآن لا ريب فيه كما يؤكد قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَلْكُتُبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^٢ في حين

١- سورة الأنفال / ٢.

٢- سورة البقرة / ٢.

أننا نرتاب فيه، والحال إن الريب فينا لا في القرآن.

القرآن هدى للمتقين

ثم إنَّ القرآن هدى للمتقين، فالذي يشك فيه لا يكون هدى بالنسبة إليه، فمن حق القرآن عليك أن لا تشك فيه، وأن لا تساويه بغيره، ففضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه، أمّا أن تجعل أيّ كتاب قريناً للقرآن فإن هذا السلوك يجعلك شاكاً في كتاب الله.

وهكذا فإنَّ من حق القرآن عليك أن تحترمه، أما أن يُتلى عليك هذا الكتاب ثم لا تحترمه فإن هذا يعني وجود إنحراف وشذوذ في سلوكك، فاحترام القرآن يعني احترام الله تعالى، فعندما تريد أن تتلو القرآن إستشعر الخشوع وحالة الخضوع لله، واجلس أمام القبلة في حالة نفسية معينة، ثم افتح كتاب الله فحينئذ ترى أنَّ العلم سيتفجر من جوانبك لأن روحك إتصلت بنور القرآن.

وإذا ما تدبرت في آيات كتاب الله فلم تحصل على شيء فربما توجد بينك وبين الكتاب بعض الحواجز، فاتَّهم نفسك ولا تدعي أنك بريء، فيوسف الصديق عليه السلام على عظمته ومنزلته لم يبرئ نفسه، فقال: ﴿وَمَا أَبرِئُ نَفْسِيَّ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾^١، واحذر أن تُحمِّل القرآن الكريم أفكارك،

فلا تقل إنني سأقرأ القرآن لأخرج منه بتدبرات قيّمة أبينها للآخرين فيعجبون بأفكاري، فهذا هو أول انحراف، فنحن لا نقرأ القرآن، ولا نتدبر في آياته من أجل أن يستحسننا الناس، ومن أجل أن نتكبر عليهم. وفي هذا المجال يقول الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قَالَ: «يُرْتَلُونَ آيَاتِهِ، وَيَتَفَهَمُونَ مَعَانِيَهُ، وَيَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِهِ، وَيَرْجُونَ وَعْدَهُ، وَيَخْشَوْنَ عَذَابَهُ، وَيَتِمَثَّلُونَ قِصَصَهُ، وَيَعْتَبِرُونَ أَمْثَالَهُ، وَيَأْتُونَ أَوْامِرَهُ، وَيَجْتَنِبُونَ نَوَاهِيَهُ، مَا هُوَ وَاللَّهُ بِحِفْظِ آيَاتِهِ وَسَرِدِ حُرُوفِهِ وَتِلَاوَةِ سُورِهِ وَدَرَسِ أَعْشَارِهِ وَأَحْمَاسِهِ حَفِظُوا حُرُوفَهُ وَأَضَاعُوا حُدُودَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ تَدَبُّرُ آيَاتِهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كِتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ﴾^١.

فهناك الكثير من كانوا يحفظون القرآن عن ظهر الغيب، ولكنهم كان يصدق عليهم قول النبي ﷺ: «كَمْ مِنْ قَارِئِ الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ»^٢.

قراءة القرآن للعمل لا للرياء

وهكذا فإن علينا أن نقرأ القرآن للعمل به، لا للرياء والمباهاة، ومن أجل أن نصعد المنبر لتحدث للناس ونتباهى أمامهم بما حفظنا، لأن أولئك الذين يجلسون تحت منبرنا سوف يسارعون إلى الجنة في حين أننا

١- ميزان الحكمة، ج ٨، الحديث ١٦٢١٧، عن: تنبيه الخواطر، ص ٤٦٣.

٢- بحار الأنوار، ج ٨٩، كتاب القرآن، باب ١٩، فضل حامل القرآن، ص ١٨٥، ح ٢٤.

سنسلك طريقاً آخر، والحديث الشريف عن رسول الله ﷺ في وصيته لأبي ذر بيّن هذه الحقيقة: «يَا أَبَا ذَرٍّ! يَطْلُعُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُونَ: مَا أَدْخَلَكُمُ النَّارَ وَقَدْ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ لِفَضْلِ تَأْدِيبِكُمْ وَتَعْلِيمِكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: إِنَّا كُنَّا نَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَلَا نَفْعَلُهُ»^١.

عليك أن تحدد الهدف من التدبر في القرآن، فإذا اتعظت به، ووصلت إلى مرحلة الانتفاع بمواعظه، فإنّ القرآن سيكون بالنسبة إليك نوراً وهدى وبصيرة وكل ما تبغي منه أن يكون لك.

وبناء على ذلك فإنك إذا أردت أن تقرأ القرآن، فاقبل عليه بحالة نفسية معينة تقتضي منك أن تعمل بمضامين آياته كأن تنفق أموالك، أو تترك علائقك الدنيوية، وتهجر بلدك، وتقاوم وترفض وتثور. أما أن تجعل على عينيك غشاوة، وفي أذنيك وقراً وتهرب من القرآن لأنه يأمرك - مثلاً - أن تهاجر من بيتك وبلدك، فهذه ليست قراءة واعية ومتدبرة له.

وبالطبع فإنّ من الصعوبة أن يصل الإنسان إلى حالة التسليم المطلق لأوامر الله تعالى، فهذه الحالة تقتضي من الإنسان أن تتفجر الحكمة من جوانبه وأن يقع مغشياً عليه عندما يقرأ القرآن، وأن تنقله من حضيض الذنب إلى قمة التوبة والطهر، والله سبحانه وتعالى يطلب منا أن نخلق

١ - بحار الأنوار، ج ٧٤، كتاب الروضة، أبواب مواظب النبي، باب ٤ ما أوصى به ﷺ إلى أبي ذر، ح ٧٦، ٢.

هذه الحالة في أنفسنا فيقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾^١، بل إن الجبل نفسه لا يستطيع أن يتحمل نور القرآن كما يقول تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾^٢.

فحاول أن تضع نفسك في هذه القمة، واتل الآيات القرآنية بتدبر، وحينئذ ستجد شلال النور يهبط عليك، وستجد ربك ذا العزة والجبروت يحدثك، وفي هذا المجال يروي الزهري عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: «لَوْ مَاتَ مَنْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَمَّا اسْتُوحِشْتُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مَعِيَ». وَكَانَ عليه السلام إِذَا قَرَأَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يَكْرُرُهَا حَتَّى كَادَ أَنْ يَمُوتَ^٣.

وللأسف فإننا نقرأ فاتحة الكتاب في الصلاة ولا نعرف متى ابتدأنا ومتى انتهينا منها، ولا نجد أنفسنا إلا ونحن نقرأ سورة الإخلاص التي نردد كلماتها بصورة آلية ولا نحفظ غيرها عادة.

وعلينا بالإضافة إلى ذلك أن نطرد من حولنا وساوس الشياطين ونحن نقرأ القرآن الكريم كما يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ

١- سورة الحديد / ١٦.

٢- سورة الحشر / ٢١.

٣- الكافي، ج ٢، ص ٦٠٢.

الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ^١، فما هو معنى الاستعاذة بالله؟ هل معناها أن تقول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم ينتهي الأمر؟

إن المعنى الحقيقي للاستعاذة يتمثل في أنك لا تملك قوة أمام الشيطان سوى الله تعالى، فعندما تريد أن تتخلص من وساوس الشيطان فعليك أن تندفع إلى الله، وتستعيز به، وبهذا المفهوم والرؤية تستطيع أن تستعيز بالله من الشيطان الرجيم شريطة أن لا تضمر لأخيك السوء، ولا ترائي في أعمالك، ولا تعتبر علاقاتك الاجتماعية والدينية ذات أهمية بالقياس إلى أهمية تعاليم القرآن، وأن تقطع آمالك بالخلق، وتوثق روابطك بالخالق، ثم ابدأ بعد ذلك بقراءة القرآن بعد أن تستعيز بالله من شر الشيطان الرجيم. وإذا لم نصل إلى مستوى الانتفاع بالقرآن الكريم رغم كل ذلك، فإن هناك قوانين وقواعد تُسهِّل عملية فهم الآيات القرآنية كإهتمام بالعلاقة بين الآية والأخرى، والتركيز على فهم علاقات الكلمات داخل الآية الواحدة، ومعرفة من الذي تنطبق عليه هذه الآية، وهذه هي مجموعة من القواعد والقوانين التي تُسهِّل التدبر في القرآن ولكنها تبقى عديمة الجدوى إذا لم نكن في مستوى التدبر، وإذا لم نستشعر حالة الإقبال على آيات القرآن الكريم.

القرآن دواء أمراضنا

إنَّ لكل واحد منّا مرضاً يعاني منه، فأحدنا حاسد، والثاني ضعيف الإرادة، والثالث متقاعس وهكذا، وعلى كلٍّ منّا أن يميّز مرضه، ويفتّش في القرآن عن علاج هذا المرض قبل أن يحل يوم الندامة فلا ينفعنا الندم، وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾^١، فمن المألوف أن يعضّ الإنسان سبّابته عند الندم أو التعجب، ولكن الظالم يوم القيامة يعضّ على يديه، ولا يُخفي ندمه في قلبه، فهو لا يستطيع أن يُخفي ندمه وإن شمت الناس به، فيطلق صرخات الندم قائلاً: ﴿يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^٢ يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا^٣.

لنتخذ من القرآن خليلاً لنا

إنَّ الخليل الذي يجب أن نتخذه لأنفسنا هو القرآن الكريم، فنبكي عندما يبين عذاب النار، ونفرح طمعاً في الجنة وليكون القرآن شفيعنا يوم القيامة، لا أن نتخذ الظالمين المفسدين أخلاء لنا، فيضلونا عن الذكر من خلال مجالس البطالين، وجلسات الجدل والمرء والتهمة.

علينا أن نقرأ القرآن الكريم باستمرار، كأن نقرأ عشر آيات كل ليلة لكي لا نُكتب من الغافلين، فلنقل من ظاهرة جلسات اللهو، ولنشكل

١- سورة الفرقان / ٢٧.

٢- سورة الفرقان / ٢٧ - ٢٨.

مجالس الموعظة والعلم والمعرفة لكي تُبعد عن أنفسنا وساوس الشيطان الذي يقول عنه تعالى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾^١، فالشيطان يضرنا ويخذلنا ويحاول أن يصرفنا عن التدبر في آيات القرآن الكريم، ويجعله كتاباً مهجوراً بالنسبة إلينا، فيشكونا حينئذ النبي ﷺ إلى الله قائلاً: ﴿يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^٢، وكأنه ﷺ يريد أن يقول لقد اهتموا بجرائدهم وصحفهم وإذاعاتهم الباطلة، أما القرآن فقد وضعوه وراء ظهورهم.

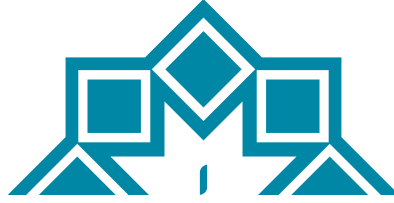
فلنحاول أن لا نكون - لا سمح الله - من مصاديق هذه الآيات القرآنية وذلك من خلال الإقبال على تلاوة القرآن الكريم تلاوة واعية متدبرة وبالشروط والمواصفات التي ذكرناها، لكي نصل إلى مستوى فهم هذه الآيات، وبالتالي إلى مرحلة الانتفاع بها في حياتنا العملية.

١- سورة الفرقان / ٢٩.

٢- سورة الفرقان / ٣٠.

التدبر في القرآن

- ١ - كيف نفهم القرآن؟
- ٢ - خطوات لفهم القرآن
- ٣ - الشروط الغيبية لفهم القرآن
- ٤ - أهمية الروح العلمية في التدبر



كيف نفهم القرآن؟

لا شك إن فهم القرآن الكريم يختلف عن غيره من الكتب، لأن القرآن - كما نعرف ذلك جميعاً - هو كتاب الله التشريعي، في حين أن الطبيعة - مثلاً - هي كتاب الله الحقيقي. فالإنسان القادر على إكتشاف القرآن هو القادر على إكتشاف الطبيعة، والعكس صحيح، فالذي يستطيع إكتشاف الطبيعة يستطيع أيضاً إكتشاف القرآن، وبالتالي فإن الإنسان إذا بلغ مستوى عالياً من النضج الفكري الواعي، سيصل أيضاً إلى مرحلة من النضج الفكري والمنهجي تؤهله لفهم القرآن.

التعلم للعمل

ومع ذلك فإن هناك قواعد منهجية يجب أن يتبعها الإنسان لفهم كل حقيقة ومن بينها القرآن، والملاحظة المهمة التي نريد أن نشير إليها هنا هي أن الإنسان يجب عليه أن يتعلم للعمل، أمّا إذا أراد أن يتعلم لغير العمل

فإنه سوف لا يبلغ المستوى المقبول من العلم، كما أنه على الإنسان أن يتعلّم ليكون متعلّماً ليس إلا، وأن لا يداخله أي نوع من الكبر والغرور؛ أي عليه أن يتدبر ويبحث مجرداً نفسه من النوايا الدنيوية، فإن خالطت نيته ذرة من الكبر والغرور والاعتداد بالنفس وحب الرئاسة والسلطة والاستغلال، فإنه سيفقد من العلم بمقدار تلك النوايا السيئة التي خالطته.

إن كل شيء من الممكن أن يكون نافعاً لنا في طلب العلم؛ فالكتاب الذي ندرسه، والمحاضرة التي نسمعها، والظاهرة التي نراها، كل ذلك وغيره من الممكن أن يحقق الفائدة العلمية لنا مادام يرسم في أذهاننا علامات الاستفهام، ويدعونا إلى البحث، وطلب الحقيقة، وعلى سبيل المثال: فإن كنت تقرأ هذا الكتاب وتؤمن به، ثم لا تبحث عن حقيقته وواقعه فإنه يعتبر بالنسبة إليك باطلاً وإن كان في نفسه صادقاً، فالذي يقبل كل كلام على علته وبدون بحث وتمحيص إنما هو طالب معلومات مشوشة، لا طالب علم بما يحمل العلم من صدق ويقين.

إننا من خلال البحث نرسم أمامنا خطأً إلى الحقيقة يدفعنا إلى المثابرة في طلب هذه الحقيقة، فصدق الحديث وكذبه بالنسبة إلى العلم هو الدافع الذي يدفعنا إلى التفكير.

وهكذا فإنّ قاعة الدرس يجب أن تكون نظيفة من أوساخ الماديات،

ومن الأفضل لنا أن نكتشف هذه الحقيقة عن طريق المعاناة والممارسة، ففي لحظة الدراسة والبحث العلمي جرّب أن تفتح باب الغرور، فإذا بأمواله تهجم على نفسك لتمنعك من فهم العلم الذي تقرأه، وتلقي على عينيك غشاوة تحجبك عن رؤية الحقيقة.

العلم نور

وبالإضافة إلى ذلك فإن الإنسان يملك نوراً في قلبه نسميه (العلم) وهو أشبه شيء بالعين التي يرى بها الإنسان، وهذا الإنسان يحتاج إلى مقدار من الإرادة يوجه بها هذا النور على الأشياء ليكتشفها، فالإنسان الذي يريد أن يرى شيئاً عليه أولاً أن يريد، ويصمم، ويعزم، فالتعبيرات تختلف ولكن حقيقة الأمر هو توجه الإنسان باتجاه الحقيقة التي يريد أن يكتشفها، أما الإنسان الذي لا توجه له فإنه سوف لا يبصر الحقيقة، وهذا الإنسان هو الذي يُصاب بزيغ البصر، لأن إرادة الرؤية مفقودة عنده، لأن هناك أشياء أخرى قد شغلته عن الرؤية كالخوف الذي يستبد به، والدعر الذي يسيطر على ذهنه، ومثل هذه الهواجس وغيرها لا يمكن أن تدعه يفكر في الرؤية.

وهكذا فإن إرادة الإنسان عندما تنشغل بشيء فإنها ستتشغل عن سائر الأشياء فيصبح إنساناً ذا بُعد واحد، فعند وجود مقدار من الغرور، أو

مقدار من أي شهوة أخرى عند الإنسان فإنه سيتوجه إلى هذه الشهوة، والقلب الذي يتوجه إلى نقطة بعيدة عن الحقيقة سوف لا يفهم شيئاً.

وللاسف فإننا أبعد ما نكون عن القرآن الكريم وعن كنوز العلم والمعرفة الكامنة فيه، في حين أن الغربيين فطنوا إلى قيمة القرآن ففتشوا فيه عن أفكار جديدة، فما يقال إن الغربيين قد اكتشفوا العلم من القرآن صحيح تماماً، ولكن هذا ليس معناه أنهم تعلموا من القرآن كيفية صناعة الصاروخ، بل إنهم استطاعوا إكتشاف مناهج التفكير من خلال الآيات القرآنية، أما نحن المسلمين فإن القرآن لم يتجاوز شفاهاً، فوقفنا على معانيه الظاهرية، ولا نبالغ إن قلنا أن القرآن الكريم كتاب مفهوم، وإن باستطاعة كل إنسان أن يفهمه، فلنوح إلى أنفسنا ونحن نقرأه بأن الله تعالى يخاطبنا، وإذا ما أوحى إلينا الشيطان أننا لا نستطيع فهم الآية الفلانية فلنراجع التفاسير أو لنراجع العلماء في القرآن ونسألهم عن معاني الآيات التي لم نستطع فهمها.

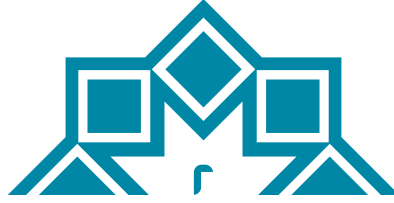
إنّ الشيطان يريد أن يغويننا، إنه عدو لنا فلتتخذهُ عدواً، ولنطرده من ساحتنا ونحن نتدبر الآيات القرآنية، ولنقل في أنفسنا إنّ هذه الآية قد بعثها الله تعالى إلينا، وإننا نحن الذين يجب أن نفهمها.

بهذه الروح علينا أن نتدبر في القرآن، لا بروح متخاذلة مستسلمة

لوساوس الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، فأنت عندما تدخل حرباً، بينما تعرف سلفاً أنك ستُهزم في هذه المعركة، وأنّ عدوك أقوى منك لأنّ سلاحه أمضى من سلاحك، فهل تستطيع أن تتصر وأنت مستسلم لهذه الحالة؟

وهكذا الحال عندما تدخل معركة الفكر فإنّ عليك أن تعرف أنك تمتلك سلاحاً ماضياً هو سلاح القرآن، فعليك التدبر فيه بفكر وعقل، وإنك قادر على اكتشاف الحقيقة بنفسك من خلال التدبر في كتاب الله، ولذلك يقول الإمام السجاد عليه السلام: «آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ الْعِلْمِ، فَكَلِّمَا فَتَحَتْ خَزَانَةً فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا»^١.

إنّ هذه الوصية هي من أهم الوصايا التي يجب أن يتبعها الإنسان المسلم، فالقرآن الكريم يخاطبنا قائلًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ونحن من الناس، إلّا إذا سلبنا من أنفسنا صفة الإنسانية، فالإنسان الذي يشك في قدرته على فهم القرآن فإنه يكون في الحقيقة قد سلب من نفسه صفة الإنسانية، وكأنه يريد أن يقول: إنني لست عاقلاً! وهذا ما لا ينبغي للإنسان المسلم أن يفعله.



خطوات لفهم القرآن

من المواضيع المهمة المتعلقة بفهم القرآن الكريم، هو طريقة الاستفادة من التفاسير ومن الروايات فيما يخص مواضع التطبيق القرآني، أو بتعبير آخر فيما يتعلق بالقصص القرآنية. فهناك - على سبيل المثال - روايات كثيرة حول قصص فرعون، وروايات أخرى حول قصة يونس أو إبراهيم أو عيسى عليه السلام، والآيات القرآنية تبين جانباً من تلك الوقائع التاريخية، في حين إنّ الأحاديث توضح جانباً آخر منها.

أسلوب الاستفادة من الروايات

ترى كيف نستطيع الاستفادة من هذه الروايات خصوصاً وأن هناك روايات حول مواضع النزول وأسبابه؟

نحن هنا أمام نوعين من الاستفادة؛ الاستفادة التقليدية، أي أن لا نتعدى ونتجاوز حدود النصوص الشرعية الموجودة، فالنصوص

والأحاديث تقول - مثلاً - إنّ موسى كان طفلاً صغيراً عندما وضع في البحر، وإن إسم أمه كان كذا، وإن هذه الأم ذهبت إلى بيت فرعون... إلى آخره من المعلومات التقليدية، وهناك روايات تتحدث عن أسباب النزول فتقول إن الآية الفلانية نزلت في فلان وفلان، ومن ثم نجمد على سبب النزول هذا.

وبطبيعة الحال فإن هذا النوع من الاستفادة مغلوط، فهي تقتضي أن نُجمد عقولنا وأن نُجمد معها القرآن الكريم.

وهناك نوع آخر من الاستفادة وهو النوع الذي يهمننا في هذا الفصل، ألا وهو أسلوب الاستفادة من القصص. إنّ الروايات والأحاديث التي تبين القصص هذه على نوعين؛ النوع الأول يمثل الروايات الصحيحة والمؤكدة التي نقف منها موقفاً معيناً، والنوع الثاني يتمثل في الروايات أو التفاسير غير المؤكدة والتي لنا منها موقف آخر.

أما بالنسبة إلى النوع الثاني من الروايات والتفاسير فإن الأفضل لنا أن لا ننظر إليها، ولا نتعب أنفسنا فيها، لأنها مادامت غير مؤكدة تأكيداً علمياً من ناحية السند فهي روايات يجب أن تُطرح جانباً، وهكذا الحال بالنسبة إلى التفاسير، فنحن - على سبيل المثال - لا نعتقد أن (ابن عباس) هو شخص معصوم، وكذلك الحال بالنسبة إلى (ابن كثير)، فأراؤه لا

نستطيع أن نؤكددها كما لا نستطيع في نفس الوقت أن ننفيها.
ونفس الحكم يمكن أن يُقرر حول الروايات التي لا تمتلك سنداً
موثقاً به، فهناك روايات ذكرها المؤرخون دون أن يُثبتوا أنها صحيحة أو
غير صحيحة، علماً إننا نعرف أن هناك روايات ضعيفة حذرنا الأئمة عليهم السلام
منها، ومثل هذه الروايات لا نكلف أنفسنا عناء البحث فيها، والاستناد
إليها، وباستطاعة الفقهاء الكبار الذين بلغوا من علم الحديث وعلم
الإسناد والرجال والدراية مرحلة متقدمة أن يكتشفوا من خلال الرواية
ومضمونها مدى صحتها وصدقها.

وهكذا لا يبقى أمامنا سوى الروايات والتفاسير الصحيحة وكيفية
الاستفادة منها فيما يتعلق بالقصص التاريخية وأسباب النزول، فهذه
الروايات بإمكانها أن توضّح لنا الظروف التاريخية المعينة التي كانت
الأمة تعيشها، فالرواية الصحيحة تشرح لنا - مثلاً - موقف موسى عليه السلام من
فرعون، أو موقف فرعون من موسى، أو تبين لنا حياة السامري فتقول إنه
كان في البدء صائغاً يملك المال، فهذه الرواية توضح لنا جانباً من فلسفة
القصص التي جاءت في الآيات الكريمة.

وفيما يتعلق بالسامري - مثلاً - فإن الروايات لم تصرّح بأنه كان رجلاً
رأسالياً بل تشير إلى أنه كان يمتلك الأموال والذهب والفضة، ومثل هذا

الاستنتاج أي كون السامري رأسالياً علينا أن نقوم به نحن، كما وعلينا أن نستنتج أيضاً أن تياراً رأسالياً كان سائداً في أيام موسى ﷺ تمثل في عبادة العجل، والرواية أو الآية الكريمة لا تشيران بوضوح إلى سبب هذه العبادة، وهذا السبب علينا نحن أن نكتشفه، فقد كان من بين بني إسرائيل أصحاب مال وثروة وبالتالي فإنهم كانوا رأساليين انتهت بهم هذه النزعة الرأسالية إلى عبادة العجل.

صحيح أن هناك أسباب أخرى تذكرها الآية أو الرواية ولكن هناك جانباً يجب أن نصل إليه نحن.

الروايات تشرح الواقع الخارجي

وهكذا فإن الروايات تأتي لتشرح الواقع الخارجي، وحينما نعرف هذا الواقع الخارجي يمكننا أن نهتدي إلى الأسباب، وكذلك الحال بالنسبة إلى الروايات التي تتحدث عن أسباب النزول فنحن نستطيع أن نستفيد منها في معرفة حدود وطبيعة الآية، وحينئذ يمكننا أن نطبقها على هذا العصر، فسبب النزول لا يعني مطلقاً أن نجمد الآية الكريمة على تلك الظروف والأوضاع التي كانت قائمة.

ومن أجل أن نوضح هذه الفكرة نطرح فيما يلي الرواية الصحيحة التي تشرح لنا قضية مسجد ضرار الذي تحول إلى مكان تجمع فيه رؤساء

المنافقين ليقفوا موقفاً معارضاً من الرسول ﷺ بأن يلتزموا بالدين دون أن يلتزموا بإمام الدين وقائده، في حين أننا نرى أن النبوة والإمامة جزءان لا يتجزآن من الدين، وأن من يؤمن بالدين عليه أيضاً أن يؤمن بأئمتهم وقادته، وإلا كانت أعماله مُحَبَّطَةً، ولكن أولئك المنافقين كانوا بعملهم ذاك يكفرون بشكل عملي بذلك الأصل المهم من أصول الإسلام، فكانوا يقيمون صلاة جماعة مستقلة لأنفسهم، ويرددون شعار: نحن نريد الإسلام بدون الرسول.

القرآن واحتمالات التفاسير

وعندما نراجع التفاسير القرآنية نجد أنها تعجب بالاحتمالات المختلفة في جميع القضايا، وهي تعبير عن أقوال واحتمالات متعددة الوجوه، مستنبطة من الآيات القرآنية أو محمَّلة عليها، فكيف يجب أن نتخذ الموقف السليم من هذه الاحتمالات المختلفة؟ يمكننا الإجابة على هذا السؤال من خلال إيراد الملاحظات التالية:

١ - الاحتمال دليل الجهل، فإذا ما سُئِلَ عن الطريق فتقول: يُحتمل أن يكون الطريق من هنا، ويُحتمل أن يكون من هنا، فإنَّ هذا دليل على أنك تجهل الطريق أو تتجاهله.

٢ - على الإنسان عندما يحتمل احتمالات متعددة، ويطرح إفتراضات

مختلفة أن لا يبقى عند هذه الاحتمالات والافتراضات، فعليه أن يحاول من خلال عمليات متعاقبة ومتتالية أن يكتشف الاحتمال الأقرب.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الآيات القرآنية، أو المسائل الفقهية فإننا نجد فيها في البدء احتمالات متعددة، ومن الواجب في هذه الحالة أن نتابع مسيرتنا العلمية حتى نصل إلى اليقين؛ أي من الشك إلى اليقين، ولا يغيب عنا إنَّ الثقة بالعقل، والتوكل على الله يمثلان طريقاً للوصول إلى اليقين، فإذا ما شككت في قدرتك على اكتشاف الحقيقة، أو لم تعتقد أن الله تعالى يقذف نور العلم في قلب طالبه، فإنك ستقف عند حدود الاحتمالات.

٣- إنَّ الاحتمالات الموجودة في تفاسير القرآن يدل بعضها على تعدّد التطبيقات للقرآن، فعندما ينزل قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ ثم نحتمل أن تكون هذه الآية نازلة في حق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، أو جعفر بن أبي طالب، أو عمار.. فإن هذه الاحتمالات لا تتعارض بل هي تطبيقات مختلفة للآية الواحدة، يمكن أن تجتمع وتكون جميعها مشمولة بمضمون أو مفهوم الآية الكريمة.

ونحن كدارسين ماذا علينا أن نعمل إزاء تلك الاحتمالات؟ هل يجب علينا جمع تلك الاحتمالات في قاعدة كلية، أو في إطار عام؟ وماذا يعني هذا الإطار العام؟

في الإجابة على هذه الأسئلة نقول: إنَّ المعاني المختلفة للكلمة الواحدة تعود بالتالي إلى معنى واحد، هذا المعنى هو المعنى الكلي الشائع والساري في مختلف المعاني التي هي ليست إلا تطبيقات لذلك المعنى الواحد، مثل كلمة (جن)؛ فهذه الكلمة لها عدة معانٍ منها (الجنين)، و(الجنان) أي الأرض المغطاة بالشجر، و(الجن) أي ذلك الموجود الغائب، و(جنّ الليل) أي غط في الظلام، و(المجنون) أي من غاب عقله... وهكذا.

إنَّ هذه المعاني المختلفة تعود كلها إلى معنى واحد شائع في كل التطبيقات، وهو أن يكون هناك شيء مغطى، أو شيء يغطي شيئاً آخر؛ فإذا كان الولد في بطن أمه غائباً، وإذا كان عقل الإنسان غائباً، وإذا كان الكون غائباً في الظلام، وإذا كانت الأرض مغطاة بالأشجار، فإن جميع هذه المعاني تكتسب ذلك المعنى الواحد.

وعلى نفس هذا المنوال يمكننا أن نقول إنَّ الاحتمالات المختلفة للآية القرآنية تعود إلى معنى كلي واحد هو المراد من الآية، وأنَّ تلك الاحتمالات هي تطبيقات لهذا المعنى الواحد، فعلى أن نكتشف هذا المعنى الواحد من خلال جميع الاحتمالات إلى بعضها، ومعرفة الخطوط المشتركة بين هذه الاحتمالات أو المعنى المشترك بينها، لكي يكون هذا المعنى المشترك هو المعنى الحقيقي للآية الكريمة.

وبالنسبة إلى الاحتمالات التي طرحناها بشأن تعيين مصاديق أو مصداق قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ فإننا نستطيع أن نقول إن هذه الآية تنطبق على جميع الاحتمالات التي ذكرناها، فجميع الأشخاص الذين سبقت الإشارة إليهم كانوا يشتركون في صفة واحدة هي التي جعلت الآية تنطبق عليهم، ألا وهي صفة الإيمان.

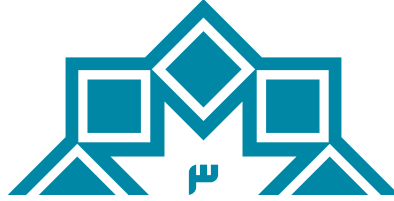
معان واحتمالات دقيقة

ومع ذلك فإن هناك معاني دقيقة قد لا تكون واضحة بالنسبة لنا إلا من خلال التفكير المستمر والمتواصل، وعلى سبيل المثال ما هو القاسم المشترك بين الأرض والفراش؟ لا شك إنه صفة التسطیح، فكل واحد منهما مسطح، كما أن هناك احتمالات أخرى يمكننا أن نطرحها كأن نقول إن المعنى المشترك هو (التمهيد) أو (الراحة)...، فكلما ازدادت الاحتمالات حاولنا أن نكتشف المعنى الواحد الذي يجمع بين هذه الاحتمالات المختلفة. وعلى هذا فإن الاحتمالات المختلفة قد لا تتعارض، وقد تتعارض في مرحلة من المراحل، فعلى هذه الحالة أن نبحث عن الاحتمال الأقرب إلى الآية الكريمة، فالبعض من تلك الاحتمالات قد يكون منشؤها التعصب المذهبية والسياسية التي ظهرت في مرحلة من المراحل التاريخية، ثم انتهت، في حين إن البعض الآخر قد يكون مصدره التوجهات الفقهية،

أو عدم تطور العلم آنذاك.

وعلى سبيل المثال فإن آية ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾^١ وضع المفسرون أمامها مجموعة كبيرة من الاحتمالات قد لا تكون صحيحة جميعها، فهذه الآية تعني إن الإنسان لا يمكنه الصعود في السماء كمثّل للإنسان الكافر الذي يحاول الوصول إلى شيء مستحيل، ونحن الآن نستطيع أن ندرك الرابط بين الكلمتين.

وهناك ملاحظة في هذا المجال وهي أننا إذا صادفنا آية قرآنية لم نستطع فهمها رغم محاولتنا المتكررة، ففي هذه الحالة علينا أن لا نأتي بمعنى بعيد عن الآية الكريمة لنفرضه عليها، بل علينا أن نعتبرها من التشابهات التي لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم، فمن الممكن أن تمضي قرون مستقبلاً نكتشف فيها أبعاداً جديدة من العلم، وفي ضوء هذه الأبعاد تكون هذه الآيات مفهومة، أما الآن فعلينا أن نكتفي بظواهرها دون الغوص في باطنها فيؤد بنا هذا الغوص إلى اضطرابات أكثر في الفهم. وهكذا فإن للاستفادة من التفاسير، ومن الروايات التفسيرية أصولاً ومبادئ علينا أن نلتزم بها من أجل ضمان فهم أكثر وأعمق للآيات القرآنية، وبالتالي تحقيق الحد الأقصى من القدرة على تطبيق مصاديق ومضامين الآيات القرآنية على واقعنا الراهن.



الشروط الغيبية لفهم القرآن

مما لا شك فيه إن التوكل على الله - عزّ وجلّ - والثقة به من شأنهما أن يفتحاً عقل الإنسان، فبالتوكل تزداد الثقة بالذات، ويستطيع الإنسان أن يُبعد عن ذاته العقد النفسية التي تمنعه عن التفكير المركز، ويزيل من نفسه حالة ضيق النظر ومحدودية الرؤية التي تمنع هي الأخرى الإنسان من التفكير السليم.

الآثار المادية للإيمان بالله

وهذه هي الآثار المادية للإيمان بالله والتوكل عليه، وهي التي يشير إليها القرآن الكريم في بعض الآيات وخصوصاً في سورة الانشراح، حيث يقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ...﴾، فشرح الصدر يعني رؤية المستقبل البعيد، والآفاق البعيدة، وعدم الانحسار في بوتقة خاصة، وفي سجن من إطارات محدودة وضيقة، فالمؤمن يتمتع بحالة (إنشراح

الصدر)، ووضوح وبعد الرؤية، وقد وصف أحد الأصحاب الخَلَص الإمام علياً عليه السلام، بأنه كان «بعيد المدى»^١؛ أي أنه لم يكن ينظر إلى يومه وساعته وإلى جماعته وبلده، بل كان ينظر إلى المستقبل البعيد، ويخطط للآفاق البعيدة.

ولا ريب إن الله تعالى هو الذي يعطينا ميزة «إنشراح الصدر»، فعندما نفكر تفكيراً إلهياً، وعندما نتصل بالقوة الكبرى لهذا الكون، وعندما نكون قطرة في بحر التوحيد، فحينئذ نستطيع أن نرى كل مكان، وكل زمان، لأن الله سبحانه هو المطلق الذي لا يحده زمان ولا مكان، أما إذا كنت مادياً متصلاً بالأرض فإنك ستصبح محدوداً متصلاً بساعتك، ولحظتك، وبأيام عمرك في أفضل الأحوال، فالناس يفكرون عادة في لحظاتهم، وقليل منهم الذين يخططون على المدى البعيد، في حين إن الإنسان المسلم المثالي ينبغي أن يفكر لمئات السنين، وهذه الخصلة تتأتى من حالة شرح الصدر، فالإيمان يجعلك تحلّق في سماء الله، فإذا ما حلّقنا في هذه السماء العالية فحينئذ ستكون القلوب صافية، طاهرة، مزكّاة، لأن الأمور الدنيوية هي جزئية في رؤية المؤمن بل تافهة، بل إنه لا يكاد يراها، فهو أكبر منها، ولذلك فإنه يعطى حالة طهارة القلب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * أَلَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ... ﴿٢٥١﴾.

التحرر من العقد النفسية

ومن الطبيعي إن الرسول ﷺ لم يكن يحمل جبلاً فوق ظهره لكي يرفعه الله سبحانه وتعالى، بل إنها العقد النفسية؛ فالإنسان مبتلى بالحقد، والحسد، والبغضاء، وسوء الظن؛ فإذا ما ارتفعت هذه العقد من نفس الإنسان فإنه سيكون متحرراً.

ولكي أوضح ما أقصده من كلامي أضرب المثال التالي: إنك في بعض الأوقات تشعر بالهمّ لأن صديقك مسافر - مثلاً - وأنت لا تعرف عنه شيئاً، فتخشى أن يكون قد أصابه مكروه، إن هذا الهمّ سيتحول شيئاً فشيئاً إلى ما يشبه الكابوس، فلا تعرف ماذا يجب أن تفعل، فتشعر بأنّ نفسك في حالة ضيق، وكأنك مقيّد في سجن، وأنت تعيش في هذه الحالة وإذا بصاحبك يعود من السفر، أو يتكلم معك عبر الهاتف، ما هو الإحساس الذي سيغمرك في هذه الحالة؟ ستشعر بالتأكيد أنك قد تحررت، وأنّ ذلك الكابوس الذي كان جائئاً عليك قد ارتفع، وتلك القيود انكسرت، وستشعر بالحيوية، وربما كنت تقرأ ولكنك لم تكن تفهم ما تقرأه، أما الآن فإنك ستقرأ فاهماً وبتركيز بسبب انعدام الشواغل الأخرى.

تصوّر نفسك متحرراً من هذه الدنيا كلها، إنك ستشعر في هذه الحالة بالحيوية، والانطلاق، وهذا هو ما يشير إليه تعالى في قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ

وَزُرْكَ* الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ* وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ*، فعندما ينشرح صدرك، ويزكو قلبك، ويزول الوزر عنك، فحينئذ سوف يرتفع ذكرك، وسوف تصبح إنساناً عظيماً، لأنك ستنتج، وتعمل، وتفكر، وتخطط.

وهذه هي المؤثرات المادية المحسوسة للإيمان بالله تعالى، فالمؤمن به ينشرح صدره، ويُرفع الوزر عن ظهره، ويرتفع ذكره، ويتيسر أمره.

الاتصال بالنور الإلهي

وهكذا فإن الذي يقرأ القرآن ينبغي أن يكون مؤمناً، ومتقياً، ومخلصاً وينبغي أن يكون في لحظة التدبر في القرآن متصلاً بنبوع نور الله تعالى، وإلا فإن هذا النور سوف لا يغمر قلبه، ولا يخترق ضميره، فالقرآن نور الله، وبصيرة، ونظارة تجعلها على عينيك فترى الحياة على حقيقتها، وترى الحقائق كلها في بُعْدَي الزمان والمكان، أما إذا لم تتصف بالتقوى فستكون بعيداً عن الله سبحانه، وإذا كنت بعيداً عنه تعالى فإنك سوف لا تفهمه ولا تفهم كلامه.

وقد جاء في حديث شريف إن الله عزَّ وجلَّ قد تجلَّى في كتابه لعباده، يقول أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة له: «...فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانُهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ...»^١، فالمؤمنون الحقيقيون

يتلذذون من تلاوة القرآن الكريم، ففيه حلاوة دونها هذه الحلاوات أو هذه المؤثرات المادية، فأنت عندما تصلي ركعتين بخشوع، فإن حلاوة هاتين الركعتين ستكون عظيمة للغاية، وهكذا الحال بالنسبة إلى حلاوة ولذة الأمور المعنوية الأخرى من مثل حلاوة الاستشهاد في سبيل الله تعالى، والحلاوة التي يشعر بها الإنسان المؤمن عندما يُبشّر بالجنة، فحينئذ ستنتهي كل أعاب وهموم الدنيا.

وهكذا فإن الإنسان المؤمن عندما يتصل بالله سبحانه وتعالى، ويرتبط بنوره، فإنه سيشعر بحلاوة تغمر جسده وروحه وكل أحاسيسه.

ترى كيف يستطيع الإنسان الوصول إلى هذه المرحلة، وإلى هذا المستوى الرفيع؟ كيف نستطيع الوصول إلى مرحلة الشعور بلذة مناجاة الله تعالى بحيث تفوق هذه اللذة لذة الاستبشار بالجنة؟ ومن الجدير أن نذكر هنا إن عقاب الله تعالى للعلماء الذين يريدون بعلمهم غير الله يتمثل في أن يسلبهم حلاوة مناجاته. على أن الأعظم من حلاوة المناجاة ربما يكون علم الإنسان، فعندما يتصل الإنسان بأفق علم الله تعالى فحينئذ سوف لا يكون أفقه محدوداً، فعندما يتصل بالله سيشعر وكأن هذه الحدود، وهذه الجدران قد أزيلت من طريقه، وأن هناك إشراقات من نور العلم تغمره، ولذلك فإننا إذا ما صادفنا أثناء التدبر في القرآن آية فهمنا ظاهرها ولكننا

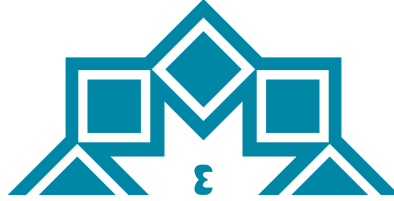
لم نستطع فهم بواطنها، واستيحاء أفكار جديدة منها، فلا بد أن نحاسب أنفسنا، فربما كانت صلاتنا مفرغة من الخشوع، أو داخلت أنفسنا بعض الأفكار الغريبة، أو لم نطهر أنفسنا تطهيراً كاملاً.

وعلى العموم على الإنسان حينئذ أن ينمي في نفسه خصلة التوكل على الله عز وجل، وأن يصل إلى الحقيقة من خلال ذلك، إذ «لَيْسَ الْعِلْمُ بِالْإِتِّعَامِ - كما يقول الحديث الشريف - إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبٍ مَنْ يُرِيدُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ»^١، وفي هذا المجال هناك حادثة طريفة رواها لي المرجع الراحل آية الله العظمى السيد الخوئي رحمه الله، فقال: إن أحد المفسرين للقرآن الكريم قال لي أنه حينما كان يفسر القرآن، وتصادفه بعض الألفاظ التي يصعب عليه فهمها فإنه يبادر إلى مراجعة القواميس اللغوية والتفاسير المختلفة فإن لم يجد لها جواباً، أي أنه لا يستطيع إكتشاف المعنى الحقيقي للكلمة، فيتوسل في هذه الحالة بالصوم، وقبل أن يفطر يذهب إلى المسجد ويجلس وحده ويصلي ويتضرع إلى الله تعالى أن يُلهمه المعنى الصحيح والدقيق للكلمة، وقد كان في كثير من الأوقات يوفق بالفعل إلى ذلك، فيسجل المعنى الذي يخطر على باله وهو في تلك الحالة الروحانية.

وهكذا فإن العلم يمثل نوراً يقذفه الله في قلب من يشاء، وثقوا أن الأعمال الكبيرة التي هي فوق مستوى المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان،

١ - بحار الأنوار، ج ١، باب آداب طلب العلم، ص ٢٢٤، ح ١٧، والرواية مروية عن الإمام الصادق عليه السلام.

لا يمكن أن تنجز إلّا من خلال الارتباط مع الله سبحانه.
وهكذا الحال بالنسبة إلى تلاوة القرآن الكريم فإننا لا نستطيع فهم آياته، والغوص في أعماقها، واكتشاف ما يفيدنا في حياتنا العملية منها إلّا من خلال توفير الشروط الغيبية التي ذكرناها فيما سبق، والتي تؤهلنا للوصول إلى مستوى من الصفاء والشفافية يجعلاننا قادرين على فهم القرآن الكريم الفهم المطلوب.



أهمية الروح العلمية في التدبر

يُشترط في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم أن يتدبر الإنسان في الآية وفي سياقها؛ أي في الآيات السابقة واللاحقة، ثم يحاول ربط هذه الآية بالآيات التي تتشابه معها في الموضوع.

وفي كثير من الأحيان نرى أن البعض يحاول أن يجمع مجموعة من الآيات من مواضع متفرقة تتشابه ألفاظها، فيجمعها في سياق واحد، ويرتبها بطريقة توحى أن الآيات جميعاً تعطي فكرة معينة دون أن يلاحظ السياق الخاص بكل آية، وعادة ما يكون هذا النوع من الاستنتاج إستنتاجاً خاطئاً، لأن الذي يفسر القرآن الكريم طبقاً لهذا الأسلوب يمتلك في ذهنه إطاراً معيناً مسبقاً يفسّر على ضوئه الآيات القرآنية، فيحملها ما قد لا تحتمله.

وعلى هذا فإن أحد الشروط الأساسية في فهم القرآن، والتفسير الموضوعي له، محاولة التدبر في الآية من خلال سياقها، واقتباس فكرة

منها، ثم تكرار هذه المحاولة بالنسبة إلى الآيات الأخرى التي يشابه موضوعها مع موضوع هذه الآية، ثم ربط الفكرتين مع بعضهما، والاستنباط منهما.

كيف نربط القرآن الكريم بواقعنا؟

الموضوع المهم الآخر هو قضية ربط القرآن الكريم بالواقع الحاضر، فعندما نعقد العلاقة بين القرآن وبين واقعنا المعاش سنكون أعمق فهماً للواقع وأعمق إدراكاً للقرآن في نفس الوقت، فعملنا هذا يشبه إلى حد كبير أن نعطي فكرة ثم نضرب مثلاً لها، فحينئذ تصبح الفكرة أكثر وضوحاً، كما أن المثل بدوره سيصبح واضحاً.

وإذا ما أردنا أن نستفيد حقاً من القرآن الكريم بالنسبة إلى الواقع الخارجي، فإن علينا أن ندرس الواقع الموضوعي كله، فكما قلنا فإن الآيات القرآنية يجب أن تُدرس من خلال السياق، وكذلك الحال بالنسبة إلى الواقع الموضوعي فإننا يجب أن ندرسه من خلال سياق التأريخ له.

في إحدى سور القرآن الكريم التي ذكرت فيها قصص الأنبياء ﷺ مع شعوبهم، نرى أن كل قصة تبدأ في الظاهر بعبارات متشابهة كأن يقول لهم رسولهم؛ اعبدوا الله واتقوه، ولكن قومه يعارضونه، ثم يُنزل الله تعالى عليهم العذاب، وقد اشتركت جميع تلك الأقوام بهذه الصفة؛ يرسل

إليهم النبي، فيعارضونه ويكذبونه، ثم تتدخل قوة غيبية لتحطم وتفني هؤلاء القوم.

ولكننا عندما نتعمق في مضامين هذه الآيات القرآنية التي تبدو متشابهة نكتشف أن هناك فروقاً بينها، فكل قوم كانوا يرتكبون جرائم معينة، ونوعاً معيناً من الفساد، ثم ينتهي هؤلاء القوم بسبب هذا الفساد المعين، في حين أن النبي كان يضع يده على بؤرة الفساد، ويطلب منهم تجنبها.

وعلى هذا فإننا عندما نريد أن ندرس الواقع الاجتماعي فإن علينا أن ندرسه من خلال سياقه التاريخي، وخصائصه الاجتماعية، وميزاته المعينة، فكل قوم يختلفون عن الآخرين، فعندما ندرس الخصائص، وندرس الآية من خلال هذه الخصائص نكتشف أن القرآن الكريم عندما يذكر لنا مثلاً تاريخياً معيناً لكل نوع من الأنواع المختلفة للأنظمة، فإنه يذكر لنا في الحقيقة سلوكية منحرفة خاصة، مثل قصة النبي موسى ﷺ مع قومه كمثال للحكومة العنصرية التي تفضل عنصراً على عنصر آخر، وتعتمد على أيديولوجية دينية معينة، في حين أن قوم عاد - مثلاً - لم يكونوا يمتلكون منهجاً دينياً خاصاً، بل كانت لهم حضارة جبارة تتحكم في مصائر الناس. فلكل ظلم شكل، وردّ هذا الظلم ينبغي أن يكون بالشكل الذي

يتناسب مع نوعه، فإن لم ندرس الآيات ضمن سياقها، والواقع ضمن سياقه فسوف نشبهه في التطبيق، لأن معرفة الواقع شرط ضروري لمعرفة حكم هذا الواقع من خلال الآيات القرآنية، كما أن معرفة الآيات القرآنية هي الأخرى شرط ضروري لهذه المعرفة.

نوعان من التفكير

وبالاستناد إلى ما سبق أن ذكرناه يمكننا القول أن هناك نوعين من التفكير؛ التفكير الرياضي، والتفكير الواقعي أو التركيبي، فالتفكير الرياضي يدور دائماً بين شقين متناقضين فيقول - على سبيل المثال - إن الإنسان كبير أو صغير، متزوج أو عازب، أسود أو غيره وهكذا... أما القسم الثاني من التفكير - التفكير الواقعي أو التركيبي - فإنه يقسم الأشياء حسب ما تقتضيه الواقعيات الخارجية، وفائدة هذا التفكير أنه يتحدث عن ما هو موجود، ولا يتحدث عن أمور فرضية.

إن الفكر السليم هو الفكر الذي يجمع بين الاثنين؛ بين التفكير الرياضي، والتفكير الواقعي؛ أي أنه يقسم أولاً تقسيمات رياضية، ثم يحاول أن يجد لهذه التقسيمات الرياضية أنواعاً وأفراداً في الواقع الخارجي، فإن لم يجد نوعاً من الأنواع الواقعية قرر أن هذا النوع ليس موجوداً، وإن كان ممكن الوجود عقلاً ولكنه غير ممكن الوجود في الواقع الخارجي.

إنّ العلم يتجه الآن إلى أن يعتمد أسلوب الاحتمالات، أي أن يدرس كل الأمور بلغة الرياضيات حتى بالنسبة إلى العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع، فتراهم - مثلاً - يبينون الظواهر الاجتماعية من خلال الخرائط والرسوم البيانية.

وبالنسبة إلى القرآن الكريم، وعلاقتنا بهذا الكتاب العظيم، لنحاول أن نحدد أخطاءنا بلغة الرياضيات؛ فقد تنشأ هذه الأخطاء من الإنسان نفسه، وقد تكون ناشئة من أعدائه، وهذه الأخطاء قد تكون قاتلة وقد تكون غير قاتلة، وقد تكون منظمة أو غير منظمة، ومن الممكن أن تكون مفاجئة أو معلومة، لنحاول أن نرسم لها جدولاً في أذهاننا، ثم نبداً بعد ذلك بقراءة القرآن، وننظر إلى الفراغات الموجودة في ذلك الجدول لنحاول أن نملأها.

إن فائدة هذا النوع من المحاسبة أنه لا يدع واقعة من الوقعات تشرذ من فكر الإنسان، كما ويتيح التمييز بين الأنواع المختلفة، فإن من ضمن الأساليب العلمية للسيطرة على الشيء تجزئته، فإذا أردت أن تسيطر على فكرة معقدة فما عليك إلا أن تحللها، وتجزئها إلى أقسام صغيرة لتسلط الضوء على كل قسم منها.

وهكذا فإن التدبر الموضوعي في القرآن الكريم يجب أن لا يكون

بمعنى الجمع بين الآيات؛ أي فهرستها، فنحن نحتاج إلى عمق أكثر لكي نربط بين الآيات الكريمة والمراحل والظروف المختلفة، فالطاغوت لا يستخدم السلاح دائماً ولا الإعلام بشكل دائم أيضاً، فكل عمل يقوم به إنما هو رد فعل للعمل الذي يقوم به الإنسان الرسالي الناهض أو الجماهير.

لنجعل تدبرنا في القرآن أكثر عمقاً

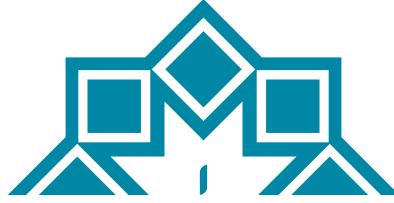
وعلى ضوء ذلك كله لنحاول أن نجعل تدبرنا في القرآن الكريم متمتعة بعمق أكثر، وخصوصاً فيما يتعلق بعملية التدبر الموضوعية خشية الوقوع في الخطأ فيها نظراً إلى دقتها وحساسيتها.

فلنهتم بفهرسة المواضيع؛ أي أن نأخذ المواضيع ونقوم بفهرستها، ثم نجد الآيات المناسبة لكل بند من البنود، وعلينا أن نعلم أن الأمر يجب أن لا يقتصر على هذه الحدود من التعمق بل علينا أن نتجاوزها لكي نستطيع معرفة المرحلة، وتحديد الظروف، ثم تطبيق الآيات القرآنية عليها فإن وجدنا مضامين هذه الآيات ملائمة لتلك الظروف أخذنا بها، واستعنا بهذه الآيات على فهم الأحداث المختلفة التي تجري من حولنا، على ضوء الأحداث والوقائع التاريخية التي يبينها القرآن الكريم فيما يتعلق بالأمم السابقة.

بصائر القرآن في الجهاد

- ١- بصائر القرآن في الصومود
- ٢- بصائر القرآن في الصراع
- ٣- بصائر القرآن في النصر والهزيمة
- ٤- المعادلات السياسية في المنظار القرآني





بصائر القرآن في الصمود

إنَّ أعظم صفة تجعل من القرآن كتاباً هادياً وبشيراً، قدرته على تقريب الإنسان إلى الحقائق الكونية بشكل يجعله يلامسها ويحسن بها ليندفع للتفاعل معها، وتطبيقها على واقع نفسه وحياته، ولذلك فإن آيات الذكر الحكيم تُسقط الحُجُب السميكة التي تفصل الإنسان عن سائر المخلوقات حتى يكشف بالتالي أن سنن الله تعالى هي السائدة في الكون والحياة. إلا أن المشكلة الرئيسية التي تكمن في أسلوب معرفة مجموع الحقائق السائدة هي أن الإنسان عادة ما يلاحظ الحقائق القريبة والظاهرة في حين يجهل أو يتناسى الحقائق البعيدة، رغم أن بعض هذه الحقائق لها دور أساس في رسم ملامح المستقبل، وتحديد معالم المسيرة، على اعتبار أن معرفة بداية الطريق ليست بالمشكلة الشائكة، لأن المهم أن يسير الإنسان برويته الأصيلة إلى آخر المطاف.

القرآن يفصل الأمثال

والقرآن الكريم بدوره يفصل للإنسان الأمثال والحقائق بوضوح وسهولة، بحيث أن الآية الواحدة منه كفيلة بتلخيص عبر التاريخ، والسورة منه قادرة على شرح حوادث سياسية، واجتماعية، واقتصادية لملايين البشر، ولذلك فإن الإنسان مدعو إلى دراسة هذه التجارب في ثنایا الذكر الحكيم لعدم تمكنه من إدراك كافة الوقائع البشرية.

وعلى سبيل المثال فإن الآية الكريمة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^١، تشتمل على ثلاث جمل قصيرة يحتوي كل منها على كلمتين أو ثلاث، ولكنها رغم هذا الإيجاز الدقيق تشكل خريطة شاملة للسلوك البشري المتكامل، بحيث إن علماء الاجتماع، والنفس، واختصاصيي السلوك البشري لا يستطيعون إدراك الابعاد الواسعة لهذه الجمل الثلاث، ولم يتوصلوا إلى كنهها.

ومن هذا المنطلق تبرز الحاجة إلى بصائر القرآن لمعرفة مقياس حسن وقبح الأعمال بشكل واقعي؛ ففي بعض الأحيان يكره الإنسان شيئاً في حين أن نهايته تكون في صالحه، وفي أحيان أخرى يحب شيئاً ولكن نهايته تكون سيئة، بينما نرى أن القرآن يوضح لنا هذا المقياس في الآية الواحدة

قائلاً: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾^١.

إن معاشة القرآن لا تعني الصداقة الظاهرية مع ظاهر الآيات بقدر ما هي إتصال معنوي يدفعه إلى تطبيقها على نفسه، وقد عشت هذه الحالة من خلال التجربة، فأحسست أن القرآن كمثل الشمس تشرق كل يوم لتعطي آفاقاً جديدة، ورونقاً ذا نكهة أخرى لنفس اليوم.

وهكذا الحال بالنسبة إلى القرآن الكريم فإنه يزود العقل الإنساني من خلال القراءة اليومية له بأبعاد وآفاق جديدة، حتى أن إقتباسات الإنسان واستيحاءاته من القرآن تتطور إلى الأفضل مع مرور الأيام من خلال التفاعل الواقعي مع القرآن، وهذا يعني من جهة أخرى أن هذا الكتاب يمثل بالنسبة إلى الإنسان حديثاً وبصيرة، وهذان المفهومان اللذان تكررا في الآيات القرآنية يؤكدان على أن القرآن يعايش مرحلة الإنسان، فالحديث يعني أن القرآن يتجدد، ويخاطب الإنسان بلغة الحدث الذي يعيشه، وكذلك البصيرة التي تُبصر الإنسان بين فترة وأخرى بالموقف السليم من الأحداث المتجددة.

وضمان تجسيد هذين المفهومين في سلوكنا، تطبيقنا للحكمة القائلة:

«إقرأ القرآن وكأنه نزل عليك»، وأنا أؤكد أن هذا الأسلوب في التلاوة سوف يمنحنا النور الذي نكتشف من خلاله خلفيات الأحداث، وطبيعة العلاقات، ومنهج الحياة الفاضلة بالاستلهام من بصائر القرآن وهداه. ترى؛ كيف تتفاعل البصائر القرآنية مع النهضة الإسلامية التي نشهدها الآن في الساحة؟ وما هي العبر التاريخية التي تنفع الأمة في صراعها الدامي مع أعدائها.

قبل البدء في شرح بعض البصائر القرآنية هناك ملاحظة يعتبر ذكرها من أولويات انتصار النهضة الإسلامية ألا وهي ضرورة الاستمرار في المسيرة التصاعدية حتى تحقيق المطالب المنشودة، فهناك الكثير من الأشخاص يرسمون في أذهانهم خططاً كثيرة، وأساليب متعددة للوصول إلى هدف ما، إلا أن هذه الخطط تتوقف وتراجع لمجرد حدوث طارئ قد يعيق مؤقتاً المسيرة التنموية، ولذلك فإن الذين يصلون إلى النهايات المحددة يشكلون فئات قليلة جداً بالقياس إلى المجموع العام.

والنهضة الإسلامية المتصاعدة في هذه الأيام تكررت مثيلاتها في تأريخنا الحديث، فقبل مائة عام تقريباً انبثقت نشاطات، وتوجهات، وتفجرت حركات دامية في مختلف البلدان الإسلامية حتى أن بعض الحركات الإسلامية إمتلكت قواعد شعبية واسعة إلى درجة أن البعض

منها كادت أن تصل إلى الانتصار لولا إنزلاق قادتها إلى أودية عميقة قتلت كل مكاسب هذه الحركات.

ومن هنا فإن العاملين في الساحة الإسلامية لا بد أن يناقشوا، ويتدارسوا تجارب هذه الحركات حتى لا يقعوا في الشراك التي ينصبها لهم أعداء الإسلام كما حدث في العراق، بعد ثورة العشرين، ومصر بعد ثورة أحد عرابي.

إنّ فشل بعض هذه التجارب الثورية لا يعني إغلاق سبيل الثورة ضد الغاصبين، ذلك لكون النهضة الإسلامية تمثل مسيرة استراتيجية دائمة لا بد منها، عبر نهضة مقدسة مدروسة الخطط والأساليب لتسد بذلك نقاط الضعف والثغرات التي تدخل منها الهزائم.

بصائر القرآن في العمل الرسالي

ولعل حاجتنا إلى بصائر القرآن الكريم تزداد، وتصبح ماسة في هذه الفترة بالذات، فكلما خاض المؤمنون تجارب جديدة في النضال، واقتحموا أبواباً واسعة لمحاربة الأعداء، اشتدت الحاجة إلى الإمدادات القرآنية في المنعطفات والمنزلقات التي يمر بها الرساليون، ومن البصائر التي تذكرنا بها الآيات القرآنية ما يلي:

١ - من أولى الاستراتيجيات الأساسية لعملية التغيير أن لا يصيب

الرساليين التعب والملل في خضم هذه المسيرة، وهذا يعني إعتقاد الحذر كمبدأ رئيسي خشية السقوط في الشراك الشيطانية، وتنمية الإرادة الصلبة الكفيلة بالوصول إلى القمة، ذلك لأن الشعور بالتعب والتداعي في طريق الجهاد يعني السقوط من القمة إلى قعر الوادي، هذا السقوط الذي يذهب بجهود وتضحيات جمّة قدمت أثناء الطريق، وعلى سبيل المثال فإن القائد لو أدركه التعب في وسط المسيرة الثورية فإن هذا يعني ضياع الدماء، والتضحيات الجسيمة في لحظة واحدة.

وهذا ما يستلزم إستبعاد التعب والإنهاك عن تفكيرنا منذ البدء لكي لا نصيِّع الكثير من الجهود، فالصمود هو خيارنا الأفضل إذا انخرطنا في العمل الرسالي، ولا سيما إن التعب في مقياس الحرب يعني الهزيمة، والهزيمة بدورها تعني فقدان المحارب لكل وسائل الدفاع والهجوم التي يمتلكها.

وعندما يشتد وطيس المعركة بين الرساليين وأعدائهم، فإنهم مدعوون إلى انتظار الفرج الإلهي، ففي معركة الأحزاب مثلاً التي تعتبر من أقسى الحروب التي خاضها رسول الله ﷺ، إجتمع حلفاء قريش للقضاء على القوة الإسلامية بشكل مبرمج، ولكن ضربة الإمام علي عليه السلام لعمر بن ود العامري غيّرت ميزان القوى لصالح الدعوة الإسلامية، وهذا ما يفسّر

لنا قول النبي ﷺ: «مُبَارَزَةُ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِعَمْرِو بْنِ عَبْدِ وَدٍّ يَوْمَ الْخُنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِ أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^١.

وهكذا فإن الهدف من الابتلاءات والاختبارات الصعبة التي واجهتها الثلة المؤمنة في هذه الغزوة يتمثل في معرفة حقائق الرجال، ولكي يتخذ المؤمنون الرسول ﷺ قدوة واسوة، خصوصاً وأنهم قد يواجهون ظروفًا مشابهة للظروف التي عاشها رسول الله ﷺ.

٢- دراسة التجارب الجهادية واستيعابها:

تقول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^٢، ولعل في هذه الآية إشارة واضحة إلى ضرورة دراسة حياة النبي ﷺ المقرونة بالملاحم البطولية التي كانت في عهده ﷺ، والأمر بالذكر في الآيات السابقة يدل على وجوب ذكر قصة هذه الملحمة البطولية، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن دراسة حروب الرسول ﷺ توازي تعلم القرآن الكريم لأن هذه الحروب سوف ترسم خريطة العمل، وتمنحنا البصائر الاستراتيجية الهامة.

ويستمر السياق القرآني قائلاً: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

١- شواهد التنزيل، ج ٢، ص ١٤.

٢- سورة الأحزاب / ٩.

مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا^١، فقد أحاط الأعداء بالمسلمين من كل جانب، حتى أن أبصار المؤمنين كانت لا تثبت على شيء من شدة خوفهم وفزعهم، فكانوا يحسون بأن قلوبهم ترتفع إلى حناجرهم بسبب تلاحق الضربات، ويصف القرآن الكريم هذا الموقف الصعب في قوله: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا^٢﴾.

الحذر من دور المنافقين

وفي ظل هذه العوامل المثبطة يبرز دور المنافقين التخريبي الذي يشير إليه تعالى في قوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا^٣﴾، فيمتنع هؤلاء المنافقون عن دفع المال بحجة الحاجة، ويرفضون النصر مفضلين المشاغل الدنيوية، ويتهربون من سائر الأعمال المقدسة، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ^٤﴾ دلالة على أن هناك فئة أخرى غير المنافقين تسهم في إثارة الانحرافات، وبث الضلالات عبر نظراتها السلبية، وعلى هذا فإن من النتائج الإيجابية للابتلاءات معرفة

١- سورة الأحزاب / ١٠.

٢- سورة الأحزاب / ١١.

٣- سورة الأحزاب / ١٢.

٤- سورة الأحزاب / ١٢.

هذه الفئة، فمن خلالها تنكشف حقائق الكثير من الناس. وبالإضافة إلى عمليات بث الإشاعات التي يقوم بها المنافقون، فإنهم يحاولون رسم خطوط مشبوهة لترويج الخطوط التراجعية عند المسلمين متذرعين بتبريرات مختلفة يشير إليها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا* وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا*^١، وكل هذه الأساليب تستهدف - كما تشير إلى ذلك الآية - الفرار من ساحة المواجهة.

الثبات، القضية المركزية في الجهاد

ثم يذكر الله عز وجل بالقضية المركزية في الجهاد قائلاً: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا دُبُرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا*^٢، فالثبات أمام الأحداث الطارئة من البنود الأساسية في المعاهدة مع الله تعالى، ومن المعلوم أن معاهدة الرسول ﷺ، والقيادة الشرعية تدخل ضمن المعاهدة الإلهية، ولذلك فإن التملص من أوامر القيادة، أو التراجع عن العمل الجهادي، والهرب من التجمع الإيماني كل ذلك يعني خيانة للمعاهدة مع

١- سورة الأحزاب / ١٣ - ١٤.

٢- سورة الأحزاب / ١٥.

الله سبحانه وتعالى.

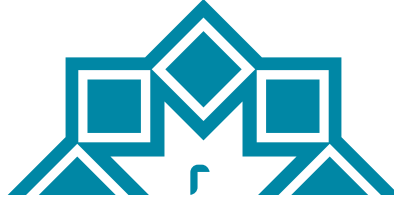
ولقد وضعت القوى المعادية ثقلها في ميزان دعم الأنظمة العميلة، ولما لم يتمخض هذا الثقل الإعلامي والتقني عن نتائج فاعلة، اضطرت هذه القوى إلى دعم هذه الأنظمة بالقوة العسكرية، فالأعداء متواجدون الآن في منطقة الشرق الأوسط بقوة عسكرية هائلة من خلال قواعدهم العسكرية، وعبر الوجود الصهيوني في إسرائيل، كما أن بعض القوات المعادية المنتشرة في العالم تساهم في تثبيت بعض الأنظمة السياسية. إن الاستكبار، وعملاء من الحكومات، والكيانات الإرهابية يحاولون الآن تصفية القوى الإسلامية من خلال مخططات العنف والإرهاب، وعمليات الاغتيال للرموز الإسلامية.

ولقد حدث ما يشبه هذه العمليات بعد وفاة الرسول ﷺ من خلال معاوية الذي لعب دوراً كبيراً في تصفية معارضيه من الشخصيات الإسلامية المعروفة بتأريخها العلمي والجهادي.

إن ضخامة الكثافة السكانية للمسلمين في العالم لا يعني بالضرورة توجيههم بالكامل إلى عملية الصراع ضد المستكبرين، بل إن هناك أقلية رسالية تمارس هذا الدور، وهي محاصرة من قبل القوى المعادية، وفي هذه الحالة فإن هؤلاء الرساليين بحاجة إلى فترة أخرى من الصبر، والعمل

الصادق، وإني لا تنبأ بحدوث بعض النتائج والمكاسب الإيجابية خلال الفترة القريبة القادمة إن شاء الله.

وهكذا فإن الإسلاميين يقفون على أعتاب مرحلة جديدة هم أحوج ما يكونون فيها إلى الصبر، والاستقامة، والصمود من خلال اتكائهم على إرادة إسلامية صلبة تقهر القوى المعادية معلنة عن بزوغ فجر إسلامي مشرق، وتاركة وراءها كابوساً ثقيلاً طالما جثم على صدر الأمة الإسلامية.



بصائر القرآن في الصراع

مَثَلُ الأَمةِ المؤمنةِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهَا الزَّمانُ اشْتَدَّ ساقِها،
وانتشرت فروعها، ومَثَلُ الأَمةِ الكافرةِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ مَجْتَثَةٍ مِنْ فَوْقِ
الأَرْضِ فَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهَا الزَّمانُ تَحَطَّمتْ فروعها، وتفتت ساقها.

الصراع يزيد المؤمنين تماسكاً

والصراع بين هاتين الأمتين كلما دام أفضل أثراً، وأحسن عاقبة، ذلك
لأن الصراع يهدم أسس الأمة الفاسدة، في حين يزيد الأمة المؤمنة قوة
وتماسكاً وتجربة وصموداً، لأن المشاكل هي التي تصقل شخصية الإنسان
المؤمن، وإذا أضيفت إليها مشاكل الصراع ومآسيه فإن نفوس المؤمنين
سوف تزداد صلابة، ذلك لأن مواقفهم من المشاكل تختلف أساساً عن
مواقف الكفار. فالإنسان المؤمن يتلقى المشكلة كتجربة جديدة يخوضها
من أجل إكتساب المناعة والهدى والعلم كما يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^١.

ولو كانت الدنيا سهلة ميسورة، واقتصر فيها دور الإنسان المؤمن على عبادة الله تعالى من خلال الصلاة والصوم، والحياة العادية الروتينية، فإنّ مثل هذه الحياة لن تُمكنه من بلوغ مقام محمود، فقد يدخل الجنة ولكنه سيحصل على الدرجات المتواضعة فيها، في حين أنّ الإنسان المؤمن ينبغي أن يكون طموحاً ومتطلعاً إلى الدرجات العلى، فهو لا يكتفي بالحصول على الإذن بدخول الجنة، بل يريد أن يكون: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^٢.

ولن ينال المؤمن هذه الدرجة الرفيعة دون أن يخوض تجربة الامتحان في الدنيا حتى تصقل نفسيته، والقادر على إجراء البلاء قادر على إعطاء الصبر عليه، لأن رحمة الله بالعباد، وبالمؤمنين خاصة تأبى إنزال البلاء الصعب على المؤمنين دون منحهم القدرة على مقاومته، وبالتالي فإن الإنسان المؤمن يدخل في مدرسة الابتلاءات ليخرج بطلاً حاملاً بيده شهادة الصديقين والشهداء والصالحين، وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة التالية:

١- سورة العنكبوت / ٦٩.

٢- سورة النساء / ٦٩.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^١.

أي إن القول الثابت في الحياة الدنيا هو عاقبة الثبات في مواجهة المشاكل، وهو بالتالي نتيجة الشجرة الطيبة التي يكون عودها قوياً ثابتاً وجذورها ممتدة في أعماق الأرض وفروعها منتشرة في السماء، وهكذا يكون الإنسان المؤمن حينما يواجه أعاصير المحن والابتلاءات، فيصلب عوده، ويقوى ساقه، وتمتد جذوره، وتنتشر فروعه.

الابتلاء، حصن الانتصار

ومعرفة هذه الحقيقة ضرورية لاتخاذ الموقف المناسب وفقها، وخصوصاً في مواجهة الأعداء وبعد الانتصار عليهم تجاوز غرور هذا الانتصار، ونبد الأنانيات التي قد تبرز بعد الانتصار، وتجاوز الطفيليات التي تتسلق شجرة الانتصار، وتنخر في أعماقها، ولذلك فإننا نواجه في هذه الحالة مشاكل أكبر من مشاكل ما قبل الانتصار. فلتتفرغ لتحدي

المشاكل الخارجية بصمود أكبر، ووحدة أقوى، لأن الصراع يستمر قبل الانتصار وبعده، ولكن كلما طالت فترة الصراع قبل الانتصار كلما ازداد تحصن المؤمنين ضد المشاكل التي يفترض وجودها بعد الانتصار.

وعلى هذا فإن استمرار الصراع له مردودات إيجابية، فهو يعطي القدرة على تقييم المواقف، وبناء الكوادر، وتوعية الجماهير، وتمييز الخطوط المنحرفة التي قد تتسلل في الصفوف، ومعرفة العالم المحيط بنا، والمؤامرات التي تنسج في الخفاء، واكتشاف العناصر الإسلامية المخلصة في العالم الإسلامي للتحالف معها من أجل بناء مستقبل أفضل.

برنامج الجهاد في القرآن الكريم

وفي سورتي (الضحى) و(الانشراح) يحدد الله عز وجل مرحلة من أخرج المراحل التاريخية التي مر بها رسولنا الأعظم محمد ﷺ، وفي سورة الضحى يشير - تعالى - إلى هذه المرحلة قائلاً: ﴿وَالْضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾.

فقد كان هناك تساؤل من قبل الناس، أو من قبل بعض المؤمنين وهو: لماذا لم ينزل الله تعالى النصر على نبيه وعلى المؤمنين؟ فأجاب عز وجل على هذا التساؤل قائلاً: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، أي أنه لم يهجر، ولم يتركك للأعداء.

وفي الحقيقة فإن هذه السورة تزودنا ببرنامج في نضالنا ضد الطواغيت،
وعلينا أن نتخذ كل بند من بنوده، وكل آية من آياته برنامج عمل، ومنهاج
سلوك، واتخاذ مواقف. وفيما يلي نستعرض بنود هذا البرنامج:

١ - ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾: فلنفترض أن الرساليين لم يحققوا
الانتصار، فهل ستذهب جهودهم هباء؟
طبعاً لا، لأن الشهادة ستوصلهم إلى رب العالمين، وسواء طالت المدة
أم قصرت فإن الأجر مكتوب عند الله عز وجل، وإن طول المدة لن يزيد
هذا الأجر إلا نمواً.

٢ - ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾، فالرضا غير موجود في الدنيا،
ولكن الإنسان المؤمن هو الوحيد الذي يمكنه أن يرضى، لأن الله تعالى
يمنحه الرضا وحالة الاطمئنان في نفسه، وهذا هو الأمل الذي يحدو بنا
إلى التحرك المستمر، لأن النهاية هي الرضا، والرضا هو قمة العطاء.

٣ - ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾، ويشير تعالى هنا إلى ضرورة توفر عنصر
القيادة، وعنصر الأرضية اللازمة لانطلاق العمل الرسالي.

٤ - ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾، وبعبارة أخرى فإن الوضوح ضروري
للعمل الرسالي.

٥ - ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾، فالمد الاقتصادي يُعد قضية هامة بالنسبة

إلى النهضات.

واجبات ما بعد الانتصار

ثم يوجهنا القرآن الكريم إلى ثلاثة واجبات:

أولاً: ما دام الرساليون قد بلغوا مرحلة متقدمة من العمل، فعليهم أن لا ينسوا الثغرات، ونقاط الضعف في أنفسهم، ولا يتركوا حالة الجذب والاستقطاب في صفوفهم، ولا يغتروا بهذا المقدار البسيط من الانتصار، بل عليهم أن يجعلوا نعمة النضال مفتوحة للجماهير حتى يتنافسوا في الجهاد ضد الطاغوت، كما عليهم أن لا يصدوا الجماهير عن العمل لعدم وجود الحق الشرعي الذي يخوّل لهم ذلك.

ثانياً: مساعدة المحتاجين، وقد أشار تعالى إلى هذا الواجب في قوله:

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾.

ثالثاً: النظرة المتوازنة بين قائمة الإيجابيات والسلبيات لأنّ تركيز النظر على الجانب السلبي يؤدي إلى اليأس، واليأس هو من جنود الشيطان، فعلينا بدلاً من ذلك دراسة الإيجابيات والتحرك من خلالها إلى الأمام للحصول على مكاسب جديدة، وقد استلهمنا هذا الواجب من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

إنشراح الصدر والعمل الرسالي

أما القسم الأخير من البرنامج فيبينه عز وجل في سورة الانشراح في قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، فنحن بحاجة إلى شرح الصدر، لأن قلب الإنسان إذا كان ضيقاً فإنه سيتأثر بأبسط مشكلة.

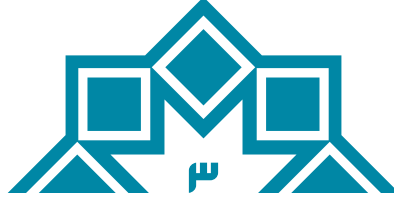
والوسيلة الوحيدة لتحقيق حالة (إنشراح الصدر) تتمثل في التوكل على الله والثقة بنصره، واليقين بأن كل شيء يرد على الإنسان المؤمن هو خير له سواء كان مصيبة أم مكسباً.

ومن جهة أخرى فإن إرتباطات الإنسان بالدنيا كتعلقه بالمال والأهل والأولاد والمناصب، هي التي تُثقله وتجعله يخلد في الأرض، أما إذا تحرر الإنسان من الأغلال النفسية فإنه يستطيع أن يتحمل الصعاب، على عكس الذي يحمل همّ الابن والأهل والبيت فإنه لا يستطيع أن يحمل في قلبه همّ الإسلام، لأنّ همّين لا يمكن أن يجتمعا في قلب واحد، وحتى إذا اجتمعا فإنهما لا ينميان في الإنسان قابلية الصمود في العمل الرسالي، وعلى العكس من ذلك فإن الإنسان إذا تقشف في الدنيا، وزهد فيها، ولم يهتم بالمظاهر الدنيوية فإنه حينئذ سيكون بمقدوره حمل هم الرسالة الإسلامية.

ضرورة الاستمرارية في العمل

وأخيراً يوجّهنا تعالى إلى برنامج مهم يتمثل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾، فالذي يحمل همّاً كبيراً، أو يتطلع إلى تحقيق هدف عظيم فإنه لا يفرغ من عمل إلاّ لينشغل بأداء عمل آخر، وزاده في هذه الرحلة الطويلة ذكر الله، والرغبة في ثوابه.

وقلب الإنسان هو الذي ينخر فيه التعب لا جسمه، لأنّ تعب الجسم ناجم من الروح والأعصاب، فإذا كانت النية قوية فإن الجسم سيتحمل متطلباتها، والذي يجعل الإنسان نشيطاً حيويّاً هو الهدف السامي، والثقة المستمرة بالله، وبالتالي نبذ الهموم الثانوية جانباً.



بصائر القرآن في النصر والهزيمة

القرآن مصدر نور يضيء دروب الإنسان في الحياة، فهو المصباح الذي يهديه إلى السبيل القويم، والنور الذي يستنير به في العثور على ضالته في الحياة، ليصل إلى المحجة البيضاء، وإنّ أولئك الذين استبصروا بالقرآن وبصائره، واهتدوا بنوره وهداه لم يضلّوا، ولم يقفوا حيارى في طريق سيرهم التكاملي، فهم ينظرون إلى المستقبل كما ينظرون إلى حاضريهم، وكما خبروا ماضيهم، ذلك إنّ في القرآن أخبار الماضين، والعبر التي ينتفع بها الحاضرون والآتون. فبأخبار الماضين يتّعظ الحاضرون، فيبصرون السبيل، وبهم تهتدي الأجيال القادمة، وينار أمامهم المستقبل.

والله سبحانه وتعالى هو الذي رسم السنن، وشرع القوانين، وأقام أسس الأنظمة السائدة في هذا الكون، ولذلك فإنه تعالى أجدر بأن يرشدنا السبيل إلى معرفة سننه والنظم التي تنطوي عليها، ويدفعنا إلى

التحرك والسير عبرها نحو الأهداف التكاملية.

وقد ضلَّ ضلالاً بعيداً أولئك الذين يدعون غيرهم إلى القرآن، ولا يغتنمون الهداية بنوره الوضّاء، فيكون مثلهم كمثل الذي يصفه القرآن الكريم قائلاً: ﴿كَبَسِطُ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾^١، أو كتائه في ظلمات يُعبّر عنه تعالى في قوله: ﴿ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْذِبْ لَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾^٢.

وهكذا فإن النور الذي يهتدي به الإنسان إلى طريقه، وينقذه من مضلّات الحياة ومتاهاتها إنما هو من الله عزّ وجلّ، هذا النور الذي يتجلّى بهياً وساطعاً في كتابه العزيز.

ومن ميزات القرآن الكريم أنه كتاب خالد لا يخلقه مرور الأزمنة والدهور، والسّر في ذلك أنه لا يعالج المتغيرات، فكل ما فيه هو تعبير عن السنن الثابتة التي لا تتغير.

القرآن هو كتاب الحق، فهو لا يحدثنا عن المظاهر الخارجية للحقائق إلّا بشكل مقتضب، بل يحدثنا عن القيم والسنن، وعن الخلفيات والقواعد الحقة، فإذا حدّثنا تعالى عن مواجهة الإيمان والمؤمنين للكفر والكافرين فإنه لا يحدثنا عن طبقة معينة في مكان محدد، بل يفصّل لنا

١- سورة الرعد / ١٤.

٢- سورة النور / ٤٠.

القول عن الإيمان كإيمان، والكفر ككفر، ومجدّثنا عن واقع الإيمان والكفر وحقيقتها، لا عن مظاهرها ومصاديقها.

القرآن يكشف عن الحقائق

نعم، من الممكن أن يضرب لنا القرآن الكريم أمثلة واقعية، ولكننا إذا أمعنا النظر في آياته فإننا سنكتشف أن حديثه مرّكز على بيان الحقائق، ومن هنا نلاحظ أن الله سبحانه يؤكد بين الحين والآخر على أنّ سننه لن تتغير، وأن الإنسان لن يجد لها تحويلاً، وأن الكافرين الذين أهلكوا عبر التاريخ لا يختلفون عن أية مجموعة أخرى من الكافرين، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمَثَلُهَا﴾^١.

فمتى، وأينها، وأنّى كان هؤلاء الكفار فإنّ تلك الحقائق سوف تتكرر، وتلك السنن سوف تتجسد مرّات ومرّات، فلا ينبغي القول إن الزمان قد اختلف حيث السيف - مثلاً - كان سيد الموقف بالأمس، واليوم ظهرت الطائرات الحربية، والدبابات المتطورة، والأسلحة الألكترونية، فالإنسان الكافر يبقى كافراً سواء تسلح بالسيف أم بالمدفعية والأسلحة المتطورة، فهو كافر في جميع الأحوال، متبع لطريق الضلال، وهذه حقيقة أثبتها الله تعالى، وأكدها التاريخ.

فلننظر، ولنقرأ التأريخ على صفحات الطبيعة، وعلى ما تبقى من آثار الأولين، كما يدعوننا إلى ذلك الخالق تعالى في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^١، فلندرس التأريخ حتى نعرف أنّ هؤلاء الذين مضوا كانوا يمتلكون القوة المادية في العصور الغابرة، حتى كان الرجل منهم يسحر أعين الناس، ويهتف بعزة فرعون لا باسم الله.

وعلى هذا فإن القرآن يحدثنا عن القيم، وعن الحق الذي قد يتجسد في شخص أو جماعة أو أمة، أو في بلد معين، ولكن القرآن لا يحدثنا إلا عن ما يحسده الشخص، وعن ما يوجد في هذا البلد من قيم وحق. ومشكلة الإنسان أنه يبحث عن المظاهر؛ فالعين ترى المنظر، والأذن تسمع حركات هذا المنظر، ولكن العقل هو المسؤول عن التعمق والنفاذ بالبصيرة إلى الواقع الكامن وراء هذا المظهر.

نصر الله

وهنا أريد التوقف عند حقيقة عرفانية تتجلى لي من خلال قوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾^٢، فالملاحظ أن القرآن هنا يعبر عن الحقيقة بلفظة (الله)، فهو لا يقول تعبيرات من مثل (إن تنصروا الدين) أو (إن

١- سورة محمد / ١٠.

٢- سورة محمد / ٧.

تنصروا الكتاب أو الرسول)، بل يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ﴾ فالحديث هنا ليس عن شخص، ولا عن خط، ولا حتى عن قيم، بل القرآن أعلى وأسمى من أن يحجّم رسالته بتلك المفاهيم، بل يستخدم لفظة (الله) بكل جبروته، وعظمته.

ترى ماذا تعني هذه الكلمة، ولماذا لم يستخدم القرآن ألفاظاً أخرى؟ في هذا المجال يقول المفسرون إنّ المعنى: إن تنصروا دين الله، أو إن تنصروا كتاب الله ورسوله والخط الصحيح في منهج الرسالة، بل إنّ هذه بعض معاني كلمة (الله)، ولكنها ليست كل المعاني التي تحويها لفظة الجلالة، فمن المعلوم إن الله تعالى هو الذي أنزل الكتاب، وأرسل الرسول، وأيد الحق، وأمر بالشرائع، ومع ذلك يظل إسم الله أشمل وأوسع تأثيراً في قلوبنا.

والسبب في ذلك أن كلمة (الله) تعني: خالق السماوات والأرض، والمودع سُنَنه فيهما، وهو المدبر والمباشر لأموال الناس جميعاً في كل لحظة، وطرفة عين، فهو المهيمن علينا جميعاً، وهو الذي أعطانا القدرة على التحدث، والاستماع، وأهملنا القول والفهم، وله الولاية على الخلق جميعاً، فهو الحي القيوم، الشاهد علينا أينما كنّا.

وبالإضافة إلى ذلك فإن لفظة الجلالة لها أبعادها الإيمانية والعرفانية

والوجدانية المؤثرة في قلوب البشر على اعتبار أنّ كل قلب يتعطش إلى ربّه، وكل شيء يسبح بحمده، ومع كل ذلك تبقى كلمة (الله) لها معناها الأوسع.

إنّ الله عزّ وجلّ لم يعدنا بالنصر إذا نصرنا الرسول بل قال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، ذلك لأن كلمة (الله) أوسع وأشمل من كلمة (الرسول)؛ وبتعبير آخر: فإنك أيها الإنسان إن نصرت شيئاً معيناً يتصل بالله ثم لم تنصر الشيء الآخر، أو نصرت كتاب الله ولم تنصر الرسول، أو نصرت الرسول والكتاب ولكنك لم تنصر الخليفة الشرعي للرسول، أو نصرتهم جميعاً ولم تنصر أحكام الله... فإن الله تعالى لا يעדك بالنصر. وهذا يعني أننا يجب أن نصر كل شيء يتصل بالله عزّ وجلّ.

التحزب والفئوية ينافيان النصر

وفيما يلي سوف نحاول إكتشاف المعاني الخفية الكامنة في تلك الآية الشريفة؛ يقول سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَدَعَانِي إِلَيْهَا»^١، ومن تجليات معاني هذا الحديث الشريف أنّ الإنسان لا بد أن ينصر كل أولياء الله، لأنّ نصره ولي الله هي من نصره الله عزّ وجلّ، أما أن يتوقع كل واحد في حدود جماعته وفئته

وخطه وحزبه ثم يمكر بالمؤمنين ويتآمر عليهم بدلاً من أن ينصرهم ويتنصر لهم فإنه سوف لا يحقق مفهوم (نصرة الله).

ونحن هنا بين أمرين لا ثالث لهما وهما؛ إما أن نقول إننا مؤمنون، وإن كافة الناس في الأمة كفار، وهذا ما لا يجوز عقلاً وشرعاً ووجداناً، وإما أن نقول إننا مؤمنون، وإن الآخرين مؤمنون أيضاً، ولكننا لا نصر إلا أنفسنا، وهذا الموقف غير جائز أيضاً، فمادام الآخرون مؤمنين، ونحن مؤمنين فإن الجميع إخوة، وماداموا إخوة فلا بد أن يتناصروا، والتناصر يعني بالتالي نصره الله تعالى.

ولكن لنسأل أنفسنا في هذا المجال؛ هل نصرنا الله بنصرة أوليائه، أم نحن ممن قال عنهم الخالق تعالى في الحديث القدسي السابق: «مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَدَعَانِي إِلَيْهَا» وهل نتوقع نصر الله ونحن نخذل إخواننا المؤمنين هنا وهناك؟

لقد كان فريق من بني إسرائيل يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾^١؟ فربنا المتعال لا يمكن أن يخذل أبناءه، بل أنتم بشر من خلق، وعبيد كالأخرين.

الأنانية سبب كل هزائمنا

إن نظرية (نحن ولا غيرنا) هي المسؤولة عن كل هزيمة ذاق المسلمون مرارتها عبر التاريخ، لأنهم انشغلوا باختلافهم، وتناحرهم، فسبب اختلافهم هذا ذهاب ريحهم، وزوال قوتهم، كما يشير إلى ذلك تعالى في قوله: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فِتَقَشُلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^١.

وقد قال المفسرون في معنى هذه الآية أن (الريح) تعني هنا السمعة الحسنة، ولكنني أرى أن لها معنى أعمق؛ فهي تعني (الإرادة)، لأن الإنسان عندما يجارب إخوانه فإنه يفقد إرادته وعزيمته وصلابته أمام العدو، فإذا كان هذا الإنسان عزيزاً على إخوانه، فإنه يكون ذليلاً أمام عدوه والعكس بالعكس.

وفي آية أخرى يقول عزّ من قائل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ*الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^٢، وهؤلاء هم عباد الله الحقيقيون، فهل نحن منهم أم أننا نغلق في وجوه الآخرين كل أبواب النقد؟

التشاور والانفتاح على تجارب الآخرين

إن من سيرة المؤمنين التشاور، والانفتاح على النقد، وتقبل النصيحة، والاستماع برحابة صدر إلى أقوال الآخرين، والاستفادة من تجارب الأمم، وهذه هي سنة الله، وهو تعالى لا ينصر إلا بسنته.

١- سورة الأنفال / ٤٦.

٢- سورة الزمر / ١٧ - ١٨.

ومن سنن الله إتباع القرآن، ومما دعا إليه القرآن أن يفتح الإنسان المؤمن أذنه وقلبه ليتفجع بتجارب الآخرين وأفكارهم، فمن وظائف الأمة الإسلامية تجاه ولي الأمر بذل النصح له، ومن مسؤولياتهم الشرعية النصيحة لإخوانهم المسلمين.

وللنصيحة هنا معنيان:

١- أن نخلص لهم.

٢- أن نتحدث إليهم بما ينبغي أن يفعلوا.

فنحن جميعاً في سفينة واحدة، وإذا رأينا من يخرق هذه السفينة فلا بد أن نأخذ على يده، فحالة اللاأبالية، والتفرّج، هي حالة خطيرة تسبب أضراراً كبيرة لنا جميعاً.

إننا لا نعيش في العالم لوحدنا، فهو عالم واسع يعيش فيه المليارات من النفوس، ولدى كل مجموعة منهم أفكارهم ونظرياتهم، ولذلك لا بد لنا من الانفتاح على تجاربهم وأفكارهم، فلا بد أن نسعى لتغيير حالتنا الفردية في التفكير والعمل، واتخاذ المواقف، لأن هذه الحالة تؤدي إلى نتائج معكوسة وخطيرة، ولذلك ينبغي التحول إلى الحالة الجماعية في أعمالنا وأفكارنا ومواقفنا، فالمنهجية الفكرية الفردية، والحالة الحزبية الضيقة أبعدتنا عن بعض، فعاش كل واحد منّا في واد حتى تعرضنا للأخطار والمآسي

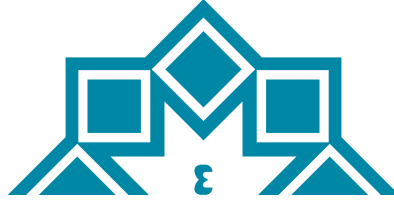
والنكسات، وأدّى الأمر بنا إلى هذا الوضع الذي نراه في بلاد المسلمين.

لا بد من العودة إلى كتاب الله

إننا نعيش في زمن القهر والتخلف، زمن تحكمه شريعة الغاب، ومن هنا لا بد من الرجوع إلى كتاب الله تعالى الذي فيه تبيان لكل شيء، وحتى إذا انتصرنا لا بد أن نعود إليه لكي نعرف كيف نحافظ على مكسب الانتصار لكي لا يصيبنا الغرور.

إن الفقه الإسلامي يقول: ينبغي عليك أن لا تأخذ أسيراً في حالة التقدم أثناء الجهاد في سبيل الله، لأنك قد تشغل به، بل عليك أن تشحن في الأرض أولاً، ونحن الآن مشغولون بمتاع الحياة الدنيا وزينتها ومناصبها وعناوينها، فلنستعذ بالله من شرور أنفسنا، ونسأله أن يجيرنا منها، فالنفس التي بين جنبي الإنسان هي ألد أعدائه، فقد ينصرك الله تعالى على عدوك الخارجي ولكن الأهم الانتصار على النفس.

والغرور هو عدونا بعد الانتصار، أما إذا أصابتنا نكسات مرحلية فإن عدونا هو اليأس والإحباط، والقرآن هو العلاج لكلا الحالتين، فلنعد إليه، ولنفتح على التاريخ، وعلى تجارب الأمم وعلى أفكار بعضنا البعض لكي نضمن بذلك الانتصار، والسيادة السياسية للإسلام.



المعادلات السياسية في المنظار القرآني

عندما نضع الكون في إطار البصيرة القرآنية، وننظر إلى حوادثه بهذه البصيرة فإن موازين القوى، ومعادلات السياسة سوف تتحوّل تحوّلاً جذرياً لدى الإنسان، وهذا ما يدعونا إلى التفاؤل والعمل الأكثر، وفي نفس الوقت يدفعنا إلى التعالي على الظروف بقدر التواضع لله سبحانه وتعالى، كما ويدعونا إلى توجهٍ إلهي يختلف عن التوجهات البشرية.

فلسفة الابتلاء

وفي آيات مباركات من سورة محمد ﷺ يبين لنا الله تعالى فلسفة الصعوبات التي يجتازها الإنسان في سبيل الوصول إلى أهدافه، أو بعبارة أخرى فلسفة إبتلاء الإنسان بهذه الصعوبات على الرغم من قدرة الله على أن ينصر عباده بالغيب منذ البدء.

وبعد ذلك يبين لنا أن الكفار الذين شذوا عن مسيرة الرسالة بعد أن تبين لهم الهدى سوف لن يضروا الله شيئاً، لأن القوة الحقيقية المطلقة واللا نهائية في هذا الكون إنما هي لرب العالمين، وبذلك فإن أعمال الكافرين سوف تتحول إلى هباءٍ منثورٍ، لأنها ليست قائمة على جذور ثابتة.

وبعد أن يحذّر الله تعالى المؤمنين من عدم جذرية العمل، بأن لا يكون عمل الإنسان وفق موازين السياسة الإلهية، والمعادلة الرسالية، يشير إلى أن القوة الحقيقية إنما هي للمؤمنين، فعليهم أن لا يشعروا بالضعف، ولا يدعوا إلى السلم وهم الأعلون لأنهم هم المؤمنون.

وفيما يلي نورد تلك الآيات القرآنية بعد أن ذكرنا خطوطها العامة، ومضامينها الرئيسية: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتَرَكَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾^١.

فلتدبر في هذه الآيات الكريمة من هذه السورة المباركة، وخصوصاً الآية التي يقول فيها تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ

وَالصَّابِرِينَ ﴿١١٨﴾.

هدفان للإنسان المؤمن

ومن خلال التدبر في هذه الآية نستنتج أن هناك هدفين أساسيين ينبغي أن يسعى الإنسان المؤمن لتحقيقهما وهما:

١- أن يكون مجاهداً.

٢- أن يكون صابراً.

والصبر يأتي بعد الجهاد، وستكون لنا وقفة طويلة عند هذين الهدفين الأساسيين في حياة الإنسان المؤمن.

إن الإنسان ليس بالمظهر، أو الجسم الضخم، أو العناوين الجذابة، والأسماء البراقة، ولا بالشعارات، والملابس، والمراكز، بل إن الإنسان بعمله، وجهاده، وصبره في ساعة المحنة لتظهر حقيقته، ويتجلى باطنه، كما يشير إلى ذلك تعالى في قوله: ﴿وَتَبَلَّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾.

وبالطبع فإن الحقيقة معروفة سلفاً لله عزّ وجلّ، ولكن رحمته تأبى أن يأخذ الإنسان بما يعلمه سبحانه، بل بما يعمل، وتكسبه يده.

وبعد أن يذكر تعالى إنّ المؤمنين يجب أن يثبتوا صفتي الجهاد والصبر في أنفسهم بعد أن تظهر أخبارهم، وأنهم من المعدن الأصيل، بعد ذلك يحذّر الله تعالى الكفار قائلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ
أَعْمَلَهُمْ ﴿١١٩﴾.

فهؤلاء الكفار لا يستطيعون التأثير في المسيرة، نعم من الممكن أن يقتلوا مجموعة من المؤمنين، وقد يهزمونهم في معركة، وقد يستطيعون أن يكونوا لباطلهم جولة بسيطة ولكن المسيرة الإلهية مستمرة، والإنسان المؤمن الذي يذوب في هذه المسيرة، وفي هدفه، والذي لا يأبه بنفسه بل يهتم برسالته، لا بد أن يكون مطمئن البال أن هدفه سيتحقق، ولأن مسيرته ستستمر، ولأن هذا الهدف، وهذه المسيرة ستنتهيان إلى الله تعالى وبما أن أعمال الكافرين لن تضر الله سبحانه فإنها سوف لن تضر الإنسان المؤمن أيضاً.

وهكذا فإن أعمال الكافرين سوف لا تثمر فحسب بل إنها ستنتهي وتتحول إلى أعمال سلبية تحيط بهم، ولا يحقق المكر السيئ إلا بأهله.

وكما أن للمؤمنين هدفين رئيسيين هما: الجهاد، والصبر، فإن هذين الهدفين لا بد أن يتقولبا ضمن طاعة الله، وطاعة الرسول، إذ قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، وفي غير هذه الحالة فإن العمل سيبطل.

إن أعمال المؤمنين لا يمكن أن تبقى مقطوعة، لأن الله تعالى يقبض

لمشعل الرسالة من يحمله عبر التاريخ، كما أن الراية الإلهية سيكون في الأرض من يقف تحتها، ويدافع عنها، فإن انتهيتُ أنا، فإنَّ المسيرة لن تنتهي، وإن استشهدتُ، أو عُدبتُ أو سُجنتُ فإنَّ هناك مؤمنين سيقومون بدوري.

لنحاول أن نطبق هذه الآيات الكريمة على الواقع السياسي المعاصر، ونضع الأحداث السياسية - ولو للحظات - وراء هذا المنظار القرآني، ولنتساءل عبر هذا المنظار، ومن خلال هذه البصائر القرآنية عن المعادلات القائمة، أهى معادلة الله سبحانه أم معادلات الطواغيت؟

إن هذه المعادلات قائمة بين فئتين؛ بين أمة مجاهدة صابرة، وبين مجموعة من الكفار مجتثي الجذور، وباطلي الأعمال، ومنتھين إلى الأبد، إنها معادلة بين هاتين القوتين؛ قوة الله التي لا تنفذ ولا تعرف الحدود، وقوة الباطل الزهوق.

ترى أين نحن من الرؤية الصحيحة لهذه المعادلات؟ ولماذا تتحول المعادلات التي يركبها أعداء الدين، وأعداء الإنسانية إلى منظار لرؤيتنا المستقبلية، ولماذا ننظر إلى الحياة عبر المعادلات الجاهلية؟

فلننظر إلى كل ذلك عبر المعادلة التي تقول: إنَّ الجهاد هدفه خلق الأمة المجاهدة الصابرة من خلال الأخذ بنظر الاعتبار الملاحظات التالية:

١ - برجة أسلوب الجهاد: عندما يكون هدفنا الجهاد فلا بد أن نبرمج طريقة جهادنا في سبيل الله لكي نحقق هذا الهدف، وبتعبير آخر، إذا قال الله تعالى لك أن الهدف من الصلاة هو أن تكون منتهية إلى رضوانه عبر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾^١، وعبر قوله الرسول العظيم ﷺ: «الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ»^٢، فإن ذلك يعني أنك يجب أن تصلي بطريقة تؤدي إلى هذا الهدف، وتنتهي إلى هذه الحكمة. فالصلاة ينبغي أن تكون بأسلوب يحقق الحكمة منها، وحكمة الصلاة الخروج بروح المؤمن، والحصول على رضوان الله عز وجل.

وهكذا الحال بالنسبة إلى الجهاد، فعندما يقرر الإسلام أن الهدف من الجهاد هو أن تبلى أخبار المؤمنين، وأن يُصنع الإنسان المجاهد الصابر، فلا بد أن نبرمج طريقة جهادنا طبق هذا الأسلوب لأجل الوصول إلى هذا الهدف، وعلى سبيل المثال فإنه يُروى في هذا المجال عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وهو عمار بن ياسر قائلاً: إِنَّ عَمَارًا مَا خَيْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ كَلَاهُمَا فِي اللَّهِ إِلَّا اخْتَارَ أَشَقَّهُمَا عَلَى نَفْسِهِ.

وهكذا الحال بالنسبة إلى طريق الجهاد، فعندما يكون الهدف من الجهاد بناء الإنسان، وتنمية ملكة الصبر في نفسه، وإبلاء أخباره، وإظهار مخبره،

١ - سورة العنكبوت / ٤٥.

٢ - دعائم الإسلام، ج ١، ص ١٣٣.

فيجب أن نخطط للجهاد بشكل يبنى هذا الإنسان وذلك من خلال تحميل النفس المشاق والصعاب، فإن كان أماننا أسلوبان في الجهاد؛ أسلوب صعب، وآخر سهل، فعلينا أن نختار الأسلوب الأول، لأن الهدف من الجهاد هو بناء الأمة الصلبة الصامدة القوية، فلا بد أن نختار الطريق الأصعب.

وكذلك الحال فيما إذا كان للجهاد أسلوبان آخران؛ أسلوب يعطي ثمرة العمل بسرعة وآخر يحتاج إلى الصبر، فعلينا في هذه الحالة أن نختار أسلوب الصبر، لأن الهدف من الجهاد هو الصبر، وكذلك الحال بالنسبة إلى سائر الحِكَم الإلهية المذكورة في القرآن الكريم، فإن علينا أن نتفحصها تفحصاً، وأن نسعى من أجل فهمها سعياً؛ فهذه الحِكَم ليست مذكورة لمجرد التسلية، أو لمجرد المعرفة، بل يجب أن تتحول إلى هدف.

وهكذا فإن الجهاد ينبغي أن يكون هدفنا، أما الهدف من الجهاد نفسه فهو الصبر والصمود، وبذل ما في الوسع من جهد.

تفجير الطاقات الكامنة

٢- إن الإنسان يمثل قوة هائلة لا يعرف هو نفسه حدودها وآفاقها، فأمام الإنسان آفاق لا تُحَد، وقدراته العقلية والجسمية قدرات كبيرة للغاية، ولكن هذه القدرات تبقى كامنة، فمتى يا تُرى تتفجر قدرات

الإنسان؟

إن قدرات الإنسان تتفجر عندما تصطدم بالصعوبات، فالحاجة أم الاختراع، والأمم القوية في التاريخ التي استطاعت أن تبلغ من الحضارة شأواً عالياً هي الأمم التي واجهت المصاعب في حياتها، أما الأمم التي انتهت وانقرضت فقد ظهرت في ظروف سهلة وعادية وانتهت بسرعة.

وفي هذا المجال يُروى عن الرومان أنهم كانوا يدخلون في حروب كثيرة، ولذلك فإنهم كانوا يحتاجون إلى رجال أشداء، وعندما كان يولد لهم مولود ذكر كانوا يأخذونه، ويذهبون به إلى الغابة، ويتركونه فيها لمدة ثلاثة أيام لوحده، وبعد انقضاء هذه المدة يعودون إليه فإن وجدوه حياً يُرزق أخذه، وإلاّ دفنوه هناك، أما فلسفة عملهم هذا فإنهم يبررونه بأنهم يحتاجون إلى رجال أشداء، فالطفل الذي يستطيع أن يقاوم الحر والبرد وأذى الحيوانات لمدة ثلاثة أيام فإنه يستطيع أن يكون قائداً حربياً، وعسكرياً قوياً.

وهكذا فإن الإنسان المؤمن الذي لا يستطيع أن يقاوم صعوبات الحياة لا يمكن أن يستمر في إيمانه، لأن أهمية الإيمان تكمن في مقاومة صعوبات الحياة.

ولا يغيب عنا، إن كل إنسان مولود على الفطرة كما قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ

اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ^١، غير أن الإنسان المؤمن لا يثبت أيمانه إلا عندما يواجه الصعوبات، فالإنسان الذي لا يُبتلى بالصعوبات لا يستطيع أن يعرف هل إنّه ما يزال مؤمناً أم لا، فهو لم يدخل الامتحان بعد، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نطلق صفة الإيمان عليه إلا إذا واجه الصعوبات، وأثبت قدرته، كما يقول تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ^٢﴾.

الجهاد لا يعني القتال بالضرورة

وللأسف فإن البعض من الناس يزعم أن الجهاد هو القتال، في حين أن هذا التصور خاطئ، فالقتال منفور منه أساساً في القرآن، ولا يُصار إليه إلا عند الضرورة، وكلمة القتال جاءت للتعبير عن الحرب كما قال تعالى:

﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ^٣﴾، ﴿يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ^٤﴾، أمّا الجهاد فهو أشمل من القتال، فالجهاد لا يختص بساعة المعركة ولا ساحتها، بل إن مفهومه يتجسد في كل وقت ومكان وفي كل حقل، ومعناه كما يقول المفسرون واللغويون هو بذل الوسع من الجهد؛ أي أن تبذل كل جهدك؛ وكما أن هذا المعنى يصدق في الحرب فإنه يصدق

١- سورة الروم / ٣٠.

٢- سورة محمد / ٣١.

٣- سورة آل عمران / ١٤٦.

٤- سورة الأنفال / ٦٥.

أيضاً فيما قبلها وبعدها، فكما يصدق في ساحة القتال، فإنه يصدق أيضاً على الحوزة العلمية، والجامعة، ومراكز البحث، أو أي مشروع آخر، كما أنه من الممكن أن يتجسد لدى الرجل ولدى المرأة في نفس الوقت، كلُّ بقدر وُسعه، وفي حدود مساحة عمله.

ونحن الآن نحتاج إلى الرساليين الذين يواصلون العمل الدؤوب والمستمر ليل نهار، نحن نحتاج إلى ذلك الإنسان الذي يطوي برنامج السنة خلال ستة أشهر، نحتاج إلى الرجل الذي يعمل في كافة أبعاد حياته، ولا يوطّر نفسه في بُعد معين؛ نحن في أمس الحاجة إلى العالم الخطيب، والخطيب الكاتب، والكاتب المفكر، والمفكر الإداري، والإداري القائد، والقائد الخبير بالحياة... وباختصار نحن بحاجة إلى كتلة من النشاط والتحرك.

ولنسأل أنفسنا: لماذا سبقتنا الأمم الأخرى؟ ولماذا تزداد الهوة اليوم بين ما يسمى بالبلاد المتقدمة، وما يسمى بالبلاد المتخلفة؟ هل السر في ذلك إيمانها، أم تضحياتها؟

إذا دققنا في الأمر اكتشفنا إن السر في ذلك يعود إلى مواصلة الجهد، والعمل، وهذا هو الطريق الوحيد لتقدمنا، إذ لا بد أن يتحول كل واحد منّا إلى كتلة من الطاقات والقدرات، وذلك من خلال بذل الجهد، وتنفيذ

برنامج جهادي مكثف.

الصبر وآثاره الإيجابية

وبطبيعة الحال فإن هناك عقبات وعراقيل تعترض طريق العمل، فلا بد لنا من الصبر، وهو لا يعني فقط أن تصبر في السجن - مثلاً - فهذا هو أضعف أنواع الصبر، بل المراد من الصبر هو الصبر العملي، وأن لا نتعجل النتائج، فقد نزرع الآن لنحصد بعد عشرين عاماً.

وفي هذا المجال يُروى عن موسى بن عمران عليه السلام أنه أتى ذات يوم إلى قصر فرعون هو وأخوه هارون وبيده عصاه فمنعهما الحراس من الدخول بحجة أن فرعون كان مشغولاً، فذهبا ثم أتيا في غد ذلك اليوم، ولم يسمح لهم بالدخول أيضاً وهكذا استمرت هذه الحالة بهما حتى انقضت سنتان بأكملهما، وفي إحدى المرات كان فرعون جالساً، فسمع لغطاً على الباب فاستفسر عما يجري فأخبر بأن هناك راعيين يأتیان إلى بابه منذ سنتين، وقد كان فرعون في تلك اللحظات في حالة فرحه ومزاحه، فأمر أن يدخلوا لكي يستهزئ بهما، ثم دخلا وإذا بموسى وأخيه عليه السلام يبلغانه رسالة الله - تعالى -، وإذا بالعصا تتحول إلى ثعبان، وإذا بفرعون يخر صعقاً من رؤيته لهذا الثعبان^١!، وقد حدث كل ذلك بفضل صبر موسى وأخيه عليه السلام، وعدم يأسهما، وإصرارهما على المضي في طريقهما، وهذا هو الصبر الحقيقي.

١ - خلاصة حديث مطوّل في: بحار الأنوار، ج ١٣، باب بعثة موسى وهارون، ص ١٤٣ || ١٤٦.

وهكذا فإن الصبر هو أن تقاوم جزع النفس، وأن لا تكون هلوياً، ولا تتعجل النتائج. والصبر لا بد أن يكون ملازماً للجهاد مهما طال، ولنعلم إن معادلات أعداء الله لا بد أن تتحطم، وتتلشى، وتنقلب عليهم كما يشير إلى ذلك بصراحة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾^١.

الكفر ومعادلة سقوطه

وقد بيّن الله تعالى في هذه الآية معادلة الكفر، والعداء للرسالة من خلال بيان المفردات التالية:

١ - الكفر.

٢ - التصدي لرسالة الإسلام والصد عنها.

٣ - معارضة القيادة الرسالية.

٤ - تبين الهدى لهم.

وإذا تكاملت هذه المفردات والشروط فإن الله تعالى سيحبط عمل الكفار، وسيُنزل عليهم نقمه.

بعد ذلك يقول ربنا عز وجل:

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَمُ

أَعْمَلَكُمْ؟^١

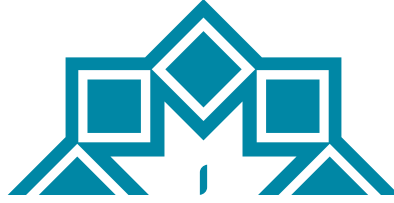
فهل يخشى من يكون الله تعالى معه؟

ومن الطريف أن نذكر هنا إن القرآن الكريم لا يستخدم كلمة (لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَرَكُمُ اللَّهُ أَعْمَلَكُمْ﴾، بل يقول: (لن) لأن الكلمة الأخيرة أكثر قاطعية وثباتاً، فلنقم بعملنا الرسالي، فإن وراءنا من يتابع مسيرتنا، ولنعلم أن أعمالنا هذه لا يمكن أن تذهب سدى، ولا يمكن أن تنتهي، ولنعمل، ونجاهد، ونصبر لكي نرى نتائج وثمار عملنا.

إننا نعيش الآن أوضاعاً نحتاج فيها إلى الجهاد والصبر، والعمل بكثافة (الجهاد)، وباستمرار (الصبر)، وإذا ما طبقنا هذين الهدفين الأساسيين من خلال تجشيم أنفسنا المشاق والصعوبات فإننا سنصل إلى النتائج في أقصى سرعة ممكنة.

بصائر الوحي ومسؤولية التطبيق

- ١- دور البصائر القرآنية في إصلاح أوضاعنا
- ٢- السبيل إلى تطبيق القرآن على واقعنا
- ٣- بصائر الوحي ومسؤولية التطبيق
- ٤- السبيل إلى تجاوز العجز الحضاري



دور البصائر القرآنية في إصلاح أوضاعنا

من البديهي أن تصورات الإنسان نابعة من رؤيته إلى الحياة، فما من نية، وما من تصوّر، وما من عمل يقوم به الإنسان إلا ضمن إطار رؤيته العامة إلى الحياة، أو في إطار فلسفته التي يؤمن بها.

وما من شك إن رؤية الإنسان المؤمن نابعة من القرآن الكريم، ولذلك فإن سلوكه وتصوراته ومواقفه في الحياة ترتبط كلها بهذه الرؤية، وتتفاعل في إطارها، في حين أن تصرفات وتصورات الإنسان الجاهلي تنطلق من فلسفته الخاطئة، ونظراته المنحرفة إلى الحياة، وهذا ما يميز الإنسان الرسالي المؤمن الصادق عن الإنسان الجاهلي المنافق أو ذلك الذي لم يدخل الإيمان قلبه بشكل كامل.

وتحضرني في هذا المجال آيات كريمة من سورة الأعراف، وهي من

غرر آيات الذكر الحكيم التي أكدت عليها بعض النصوص، والتي تكشف لنا الرؤية العامة تجاه الحياة، وهذه هي الآيات:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ * أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ * ١.

وبالطبع فإن هذه الآيات ليست الوحيدة في هذا المجال، فالقرآن كله يكاد يكون رؤية وبصيرة وهدى للإنسان، ومن ثم فإن آياته الكريمة تعطي للإنسان التصورات الصحيحة والمواقف السليمة.

الرؤية الجاهلية للحياة

والآيات التي نحن بصددھا تبين أربعة بنود فيما يخص رؤية الإنسان تجاه الحياة من حوله، ولكن قبل أن نبين هذه البنود الأربعة لا بد أن نوضح الرؤية المقابلة والمعاكسة للرؤية القرآنية، ألا وهي الفلسفة الجاهلية؛ الجاهلية التي صاغت لنفسها فلسفة شبه متكاملة منذ الحضارة الهيلينية ومن بعدها وريثتها الحضارة الرومانية، حتى وصلت تلك الرؤية والفلسفة إلى ما يسمى بالحضارة الأوروبية الحديثة.

إن هذه الرؤية تقول بأزلية الكون، لأن علة الكون الحقيقية هي الله، والله علة تامة، والعلة التامة لا تنفصل عن معلولها، ومعلولها يتمثل في (العقول العشرة)، ثم عالم المجردات، ثم عالم الماديات، وهذه العوالم لا بد أن تكون أزلية.

وقائل هذه الأفكار في القرن التاسع عشر يرى أن الكون عبارة عن شعلة متقدة كانت، ولا تزال، ولن تزول، وبموجب هذه الرؤية فإن من المستحيل حدوث التحولات والتطورات في هذا الكون على اعتبار أن الأزل لا يتغير، فينعدم أثر الزمان لأنه إنما يتأثر بالتطورات وإذا لم يكن هناك تطور حقيقي في شيء فكيف يمكن أن نتطور فيه من حيث الزمان؟

الرؤية القرآنية للحياة

هذا في حين إن البصيرة القرآنية تقول إن الله عز وجل هو رب السماوات والأرض: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فالله أولاً يربي الإنسان، ويربي الكون، وهو في نفس الوقت - الذي يعطي فيه للكون تكامله وتطوره، وبالتالي يبارك له في وجوده - فإنه يفعل مثل ذلك بالنسبة إلى الإنسان.

وانطلاقاً من هذه الرؤية فإن الزمان هو جزء من خلق السماوات

والأرض، لأنه تعالى يقول: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، فهو لم يخلق الكون مرة واحدة، ولا يهمننا في هذا المجال أن نعرف هل إن هذه الأيام هي أيام الآخرة أم أيام الدنيا، أم هي أيام ترتبط بالخلقة، بقدر ما يهمننا أن نعرف أن الزمان جزء من الخلقة، وإن الله تعالى هو ربّ يمنح الخلقة للشيء طوراً فطوراً، وخلقاً من بعد خلق، بل لحظة بلحظة، هذا أولاً.

وثانياً؛ إنّ الله تعالى هو المهيمن على الكون، وهو الذي خلق الأشياء في ستة أيام، فالأشياء تعود إليه في كل لحظة، فهو الذي يعطيها خلقها بشكل مستمر، ولو سحب تعالى عطاءه هذا لحظة واحدة فإن الكون سينعدم مرة واحدة، ولو لم يمسك الله بيد قدرته السماوات والأرض لزالتا وفسدتا وبطلتا ولم يبق منهما شيء.

وثالثاً؛ هناك أمر إلهي بالحركة، فالكون مأمور من قبل الله بالتحرك، لأن الزمن جزء من هذا الكون، فالحركة أيضاً هي من هذا الكون. فانظروا إلى الفرق الشاسع بين هذه الرؤية وبين الرؤية التي تقول إن الكون كان شعلة وسيظل كذلك، فهذه الرؤية لا بد أن تعد فلسفة الحركة في الكون، وتلك الرؤية لا تنفصل عن الحركة، وهذا هو قوله تعالى: ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾^١.

وهكذا فإن ملكوت الله شامل لكل شيء؛ الشمس العملاقة التي تسبح في الفضاء، ولو شاء الله لأخدها، والكون بما فيه من مجرات ومنظومات التي لا يرقى إليها حتى خيال الإنسان.. كل ذلك محكوم ومُسَخَّرٌ بأمر الله تعالى، فلا تستطيع أن تتحرك شعرة إلا بأمره تعالى، لأن وجودها منه، وأمرها بيده، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾^١، وهذا هو البند الرابع في الرؤية القرآنية التي تبصّر الإنسان بعمق حياته، وحياة ما حوله من الأشياء.

فالرؤية هي رؤية التكامل في الكون؛ التكامل غير الذاتي أو التكامل الغيري؛ أي أن الله تعالى هو الذي يبارك في أمر السماوات والأرض، فيمنحها الخلقة، وينعم عليها بالنعم. فنحن نؤمن بأن الكون في حالة تطور وتكامل ولكن ليس بصورة ذاتية، ولا بسبب التناقض في أجزاء الكون، بل لأن الله تعالى يشاء ذلك، ولأنه هو الذي يعطيه هذا التكامل، وتلك النعم.

وانطلاقاً من هذه الرؤية المعتمدة على البصائر السابقة الذكر وهي: بصيرة الخلق والزمن، وبصيرة الهيمنة، وبصيرة الحركة، وبصيرة البركة، لا بد أن يجد الإنسان مجالاً للتحرّك، فما هو مجال تحرّك الإنسان، وفي أيّ إطار يتكامل، وما هو الكمال الحقيقي له؟ هذه التساؤلات يجيبنا عنها القرآن

الكريم في قوله: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^١.
فأي نوع من الطغيان والاعتداء على حقوق الآخرين مرفوض في هذا
الكون، فللكون إله واحد، ورب واحد، وخالق واحد، وسلطان واحد
هو الله الأحد الصمد، لا يشاركه في خلقه أحد، ولذلك ينبغي علينا أن لا
نفكر في الطغيان بل بالمزيد من التضرع لله تعالى.

فلا بد أن يخشى الإنسان ربه، لأن الله قادر على أن يسلبه كل النعم التي
منحه إياها، أو ليس الذي ينزل علينا من السماء ماء مَعِيناً بقادر على أن
يمنع هذا الماء من النزول؟

ثم إن الآية السابقة تصرّح بأن الدعاء هو سُلَّم تكامل الإنسان: ﴿أَدْعُوا
رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، ودعاؤنا ينبغي أن يكون دعاء العمق والضراعة،
دعاء الإنسان العاجز المسكين الذي لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، ومن
دون الشعور بهذه الحقيقة يبقى الإنسان طاغياً شاعراً بالاستغناء: ﴿إِنَّ
الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَظِيفٌ﴾^٢، فإن لم تُشعر نفسك بذلك أمام الله
تعالى، وباحتجتك إلى ملكوت قدسه وسلطانه ورحمته الواسعة فإنك طاغ.

١- سورة الأعراف / ٥٥.

٢- سورة العلق / ٦-٧.

الكون يرفض الطغيان

وعندما يقول تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^١ فهو يعني أن الطغيان شذوذ في هذا الكون، وأن كل ما في هذا الكون لا يحب الطغيان، وبالتالي فإن الطاغية مرفوض، ولا بد أن يخرج من هذا العالم، فمسيرة الكون تسير باتجاه معاكس للطغيان والاعتداء شئنا أم أبينا، لأن هذا الكون قائم على أساس العدالة، وهذا هو الموقف الأول، أما الموقف الثاني فيتمثل في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾^٢، فالله يعطي للأرض البركة، والحركة، والنمو، والتكامل بالاتجاه الصحيح، فلا يجوز لك أن تأتي لتفسدها.

وما دمنّا عبيداً من عباد الله فلا بد أن نتخلق بأخلاق الله، ونسير على نفس الخط الذي أمرنا بالسير عليه، فكما أنه سبحانه يبارك للكون، فعليّ أنا أيضاً أن أقوم بالإحسان والإصلاح، فأصلح الأرض، وأحسن إلى أخي الإنسان، وهذا هو الموقف الصحيح، والمنسجم مع ذلك الإطار الذي سبق وأن بيناه، فلا بد أن نفكر فيما يخصنا، وفيما يخص أرضنا ومجتمعنا ضمن هذه الرؤية المتكاملة، ولا بد أن يفكر كل واحد منّا بكيفية الإصلاح، ولا بد أن نتحرر مواقفنا وسلوكياتنا الاقتصادية والسياسية

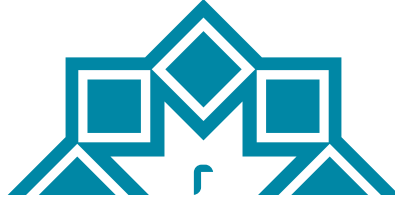
١- سورة الأعراف / ٥٥.

٢- سورة الأعراف / ٥٦.

والاجتماعية من طابع الاستهلاك والإفساد إلى طابع الإنتاج والإصلاح،
وتتحول مواقفنا من إخواننا من حالة الابتزاز والاستغلال إلى حالة
الإحسان والعطاء والإيثار.

أما بالنسبة إلى بعضنا البعض لا بد أن يكون همنا الإحسان، والتفكير
في كيفية تنمية مواهب إخواننا، وتوجيههم إلى الخير، وهم بدورهم
يجب أن يفكروا فينا، ولنعلم أننا عندما نرى أنفسنا مسؤولة عن أي
فقير يتسكع في هذه الأرض، وعن أي خراب يوجد في مساكن غيرنا،
وعن أي إنحراف وفساد في مجالات المجتمع، فإننا سنفجر طاقاتنا، أما
إذا فكرنا في أن نتطفل على الناس، ونعيش على جهودهم، ونستغلهم،
فإننا سنكون مصداقاً للآية الكريمة التي تقول: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ
الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^١.

إن الإنسان الذي يستغل الآخرين يعيش كسولاً دائماً، لأنه يرغب
أن يجلس ويفتح فمه ليأتي الناس إليه بالطعام، ويستخدم في هذا المجال
وسائل النفاق والكيد والكذب والدجل من أجل تحقيق مصالحه،
فتنحرف كل أخلاقياته، في حين أن الذي يريد أن يعطي للناس، ويؤثرهم
على نفسه، فإن أخلاقياته ستكون نزيهة.



السبيل إلى تطبيق القرآن على واقعنا

كلما طرأت على الزمن التحوّلات والتغيّرات كلما تعاظمت الفجوة بين الفكر وبين التطبيق العملي، لأن هناك منهجين ينبغي أن يُعرفا قبل الاستفادة من الفكر؛ منهج يؤدي إلى الفكر ذاته، وآخر ينتهي إلى تطبيقه على الواقع الخارجي.

ففي الفقه - مثلاً - هناك منهج لتطبيق الحكم الشرعي على الواقع الخارجي وهو ما يهتم به القضاء الذي هو علم تطبيق الفقه على الوقائع الخارجية.

وبالنسبة إلى المسلمين اليوم هناك تطورات وتغيّرات هائلة تعرّضت لها حياتهم تستدعي وجود علم يمكن أن نسميه (علم تطبيق الإسلام)، وهذا العلم لا بد أن يهتم ببيان الجوانب التي ينبغي أن يُطرح الإسلام فيها لمعرفة كيفية تطبيق أحكامه عليها.

والقرآن الكريم يطرح بصائر للناس، ويبين لهم الأحكام الشرعية، ولكن هل يمكن تطبيق كل الآيات القرآنية على الحوادث التي تقع؟ طبعاً لا، فكل حادثة تستدعي تطبيق آية معينة من آيات القرآن.

والسؤال المطروح هنا: ما هو السبيل إلى معرفة المجال الذي تُطبق فيه كل آية؟ وعلى سبيل المثال: كيف نُطبّق عِبَر التاريخ التي يبينها القرآن من حقبة الصراع بين موسى وفرعون، أو من حقبة الصراع بين إبراهيم وطاغوت زمانه نمرود، على ظرفنا الذي نعيش فيه الآن؟

نُرى في آية حقبة تأريخية نحن الآن؟ هل حياتنا تشبه حياة قوم شعيب أم عاد أم ثمود؟ وما هي السمات البارزة في حياتنا لكي نطبق عليها ما يشابهها من الأحكام التي جاءت في ظروف مشابهة؟

منهاج فهم تطبيق القرآن

من أجل أن نهتدي إلى الإجابة على هذه التساؤلات، وبالتالي من أجل أن لا تبقى فجوة بين واقعنا الخارجي وبين القرآن الكريم، لا بد أن نتبع تفاصيل المنهج التالي الذي هو منهاج فهم تطبيق القرآن.

إنّ أول وأبرز موضوع في هذا المجال يتمثل في كيفية فهم الحياة والزمان، وقد كان علماؤنا وفقهاؤنا عبّر التاريخ يهتمون بمتابعة وملاحقة الحوادث التي تقع في حياتهم إنطلاقاً من إيمانهم بالمسؤولية تجاه هذه

الحياة، وانطلاقاً من قول الرسول الأعظم ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ بِمُسْلِمٍ»^١.

وبداية الاهتمام هي معرفة الواقع، فأنت لا يمكنك أن تهتم بشيء لا تعرفه، فكيف تهتم بأُمور المسلمين في حين أنك لا تحيط بها علماً؟، وعلى هذا فإنَّ الاهتمام بأُمور المسلمين وأحوالهم يستدعي أولاً وقبل كل شيء معرفة تلك الأُمور والأحوال، والحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: «الْعَالِمُ بِزَمَانِهِ لَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ اللَّوَابِسُ»^٢.

وهنا تفسيرات عديدة لحياتنا وللعصر الذي نعيشه، فهل هو عصر الألكترون أم عصر الذرة، وهل بلداننا هي بلدان متخلفة أم نامية أم متقدمة، وما هي مشاكلنا، وما هي ميزانيات بلادنا بالقياس إلى ميزانيات البلدان الأخرى، وما هي الشركات والمصانع التي نتعامل معها؟

أهمية معرفة الواقع

نحن الآن نستخدم في حياتنا وعلى نطاق واسع الأجهزة الحديثة المختلفة، أو لم نسأل أنفسنا ما هي هذه الأجهزة، ومن الذي صنعها، وهل نستطيع أن نصنع مثلها؟

قبل فترة قرأت في تقرير عن شركة من الشركات الأمريكية تدعى

١- الكافي، ج ٢، ص ١٦٣.

٢- ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١١٥٨، عن: تحف العقول، ص ٣٥٦.

شركة (آي بي أم) أن ميزانيتها تبلغ ألف مليار دولار؛ أي ما يعادل ثلاثين ضعف ميزانية دولة من الدول النامية لمدة سنة كاملة.

وبناء على ذلك علينا أن نعرف العصر الذي نعيش فيه لكي نستطيع تطبيق الإسلام، كما ولا بد أن نعرف تعاليمنا الدينية لكي نستطيع تفسير العام منها تفسيراً يرتبط بزماننا هذا.

وعلى سبيل المثال فإننا كمسلمين، ننتهي إلى حزب يسمى «حزب الله» أشار إليه تعالى في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^١، والدعاء الشريف في قوله: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ جُنْدِكَ فَإِنْ جُنْدَكَ هُمُ الْغَالِبُونَ، وَاجْعَلْنِي مِنْ حِزْبِكَ فَإِنَّ حِزْبَكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^٢، وفي هذا المجال علينا أن نعلم إنَّ حزب الله له مواصفات معينة كالحب في الله، والبغض فيه، والعزة في الكافرين، والذلة للمؤمنين، والصدق في المواقف، والصبر في البأساء والضراء، والإيمان بالقضية والشجاعة في الدفاع عنها.

إنَّ هذه هي مواصفات حزب الله كما جاءت في القرآن الكريم، وفي النصوص المفسرة له كوصية النبي ﷺ لأبي ذر، ووصية الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام، ووصية الإمام الحسن عليه السلام لجنادة بن أمية... ففي هذه الوصايا تفاصيل للانتماء الإيماني، والولاية الإلهية التي تتجسد في تجمع

١ - سورة المجادلة / ٢٢.

٢ - بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ١٨٧.

إيماني متكامل.

والسؤال المطروح هنا هو: هل من الممكن أن نكتب بلغة عصرية التفاصيل والسمات التي جاءت في تعريف حزب الله؟ ترى كيف أعيش في هذا الجو الإيماني، وكيف أنمّي في نفسي هذه الصفات؟

مفاهيم تغيّرت مصاديقها

مثل هذه التساؤلات ليس من السهولة بمكان أن نجيب عنها، فهناك الكثير من التجمعات التي تدعي أنها إسلامية وإيمانية وأنها في أعلى مراحل الجهاد، ولكنها تتجاهل تطبيق أبسط تلك القوانين لأنّ اللغة اختلفت الآن، ولأن الشجاعة التي ارتسمت في أذهاننا هي شجاعة الحروب فحسب في حين أنها لا تمثل كل الشجاعة، فالحروب الآن ليست بالسيف، وليست بالحضور في خنادق القتال، والمواجهة المباشرة مع الأعداء.

لقد اختلفت الظروف الآن، فقد تكون الشجاعة الآن متمثلة في أن يواصل الواحد منّا عمله في مركز علمي لكي يكتشف مسألة علمية مهمة يفيد بها البلاد والعباد، وقد يتطلب الظرف منك أن لا يكون مظهرك يوحى بأنك من المؤمنين المجاهدين.

وقد تتجسد الشجاعة اليوم في أن تبقى في مؤسسة من مؤسسات

الأعداء، وتتكتم على هذا العدو لفترة طويلة، وقد تكون الشجاعة كلمة صادقة في مواجهة ظالم طاغ كما قال النبي ﷺ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^١، وقد تتجسد الشجاعة في أن تواجه صديقك بانتقاد بناءً على الرغم من علمك بأنه سيهجررك.

كل تلك الحالات هي مظاهر للشجاعة، لأن الشجاعة لا يمكن أن تقتصر على التحدي المادي الملموس، فالشجاعة بالنسبة إلى الإسلاميين هي أن يرسموا استراتيجية طموحة وشجاعة، وأن لا يضعوا أيديهم في أيدي أعداء الأمة، وأن يتوكلوا على الله تعالى.

والشجاعة قد تتمثل أيضاً في الصبر، فالكثير من الناس يزعمون أنهم شجعان ولكن شخصياتهم في الحقيقة شخصيات ضعيفة فتراهم ينخدعون بالإعلام، وإذا مدحتهم بكلمة تشجعوا وتقدموا، أما إذا ذُوموا بكلمة تراهم يحجمون، ويهربون من المواجهة، وهذه ليست شجاعة، لأن الشجاعة أن تكون شخصيتك قوية صبورة، وأن يكون عملك في سبيل الله مستمراً.

وهناك البعض من الناس يزعمون أن الصبر هو الانتظار البارد وأن تجلس في بيتك بانتظار الفرج، وبانتظار أن يحقق لك الزمان الانتصار، في حين أن الصبر هو أن تتحمل المصاعب، وتواجه المشاكل بصدر رحب، فالكثير من الناس يزعمون أنهم صابرون ولكنك تراهم ينسحبون

وينهارون بمجرد أن يواجهوا المشكلة الأولى، والبعض الآخر تراه يبرّر إنهم بالذات ألف طريقة وطريقة، مفضّلاً الأمور الثانوية على قضية الإسلام، صحيح أن الإنسان يجب عليه أن يهتم بأمور حياته ولكن ليس على حساب الإسلام والعمل الرسالي، فالوقت الذي يهدره هذا الإنسان في الأمور الثانوية من المفروض أن يُستثمر في سبيل الإسلام وتركيز النفس. لنسأل أنفسنا: لماذا كان علماءنا الأبرار رضوان الله تعالى عليهم زهاداً في الدنيا؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول إنهم لو لم يكونوا زهاداً في الدنيا، ولو كانوا يهتمون بملابسهم وبيوتهم وكماليات حياتهم لما وصلوا إلى تلك المرحلة السامية من العلم، فالعلم يقول للإنسان: أعطني كُلَّ أعطك بعضي، ولنعلم إننا لا نستطيع أن ندرك نعمة إلا بفقد أختها، فأنت لا تستطيع أن تدرك نعمة العلم إلا إذا تركت النعم الأخرى، وهكذا كانت سيرة العلماء والعاملين في الساحة، فقد كانوا يقدّمون من أنفسهم، ولا يصبّون اهتمامهم على الأمور البسيطة، وهذا هو المعنى الحقيقي للصبر والزهد.

لقد ذكرنا تلك المعاني كمثال على المعاني الأخرى التي تغيّر تطبيقها في واقعنا الراهن، فالصبر مثلاً اختلف تطبيقه الآن عن تطبيقه السابق، صحيح إنّ الجوهر لم يتغير ولكن مظهر الصبر، والتطبيق الخارجي له

اختلفا الآن عما كانا عليه في السابق.

ترى من الذي يُحدّد هذا التطبيق، ومن هو الذي أقدر من غيره على معرفة زمانه؟ ومن الذي يفتي في المسائل والقضايا الحادثة؟ إنهم العلماء بالله، الأئمة على حلاله وحرامه، شريطة أن يسيروا وفق هذا المنهج، أي أن يكون أمامهم منهج لمعرفة الإسلام، ومنهج آخر لمعرفة تطبيق الإسلام، وهذا الشرط يتطلب منهم عملاً كثيراً ومتواصلاً.

إنّ الله تعالى يبيّن بكل صراحة أنّ الشركاء من دونه لا يهدون إلى الحق، وأنّ الثقافات الأخرى لا تستطيع أن تهدي الإنسان إلى الحق: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾^١، ثم يستأنف تعالى قائلاً: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^٢، ثم يؤكد تعالى هذه الفكرة في قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^٣.

أهمية القرآن في فهم الحياة

بعد ذلك يؤكد سبحانه على أهمية القرآن، وبيّن دوره في فهم الحياة قائلاً: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ

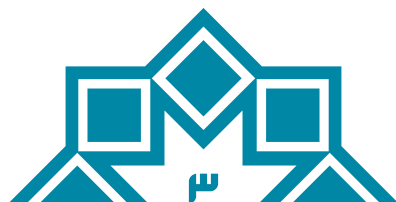
١- سورة يونس / ٣٥.

٢- سورة يونس / ٣٥.

٣- سورة يونس / ٣٦.

الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ^١، فالقرآن يحتوي على برامج واضحة لا ريب فيها، ومع ذلك فلا بد لنا من أن نطبقه على واقعنا، من خلال فهم هذا الواقع، وفهم التفسير المناسب لآيات القرآن بشكل مجاري ويتناسب مع تطورات الزمن، وتغيرات الساحة.

وهكذا فإن باستطاعتنا أن نكتشف القرآن الكريم، وأن نعثر فيه على ينباع غزيرة لفهم الحياة التي نعيشها، وهذه مسؤولية كبيرة علينا أن نتحملها من خلال بذل الجهود الحثيثة والمتواصلة في سبيل تطبيق الأحكام، والعبر، والقوانين، والسنن القرآنية على مفردات العصر الذي نعيش فيه.



بصائر الوحي ومسؤولية التطبيق

لابد أن نعرف أنّ في القرآن أحكاماً عامة تسمى بـ (البصائر)، وأنّ هناك أحكاماً خاصة نسميها بـ (الأحكام الفقهية)، وإنّ البصائر القرآنية هي التي تزوّد الإنسان بالوعي للحياة؛ كيف يعيش، ولماذا يحيى، وما هو مخطّطه العام في حياته؟

القرآن الكريم بصائر وأحكام

إنّ بصائر القرآن قد لا تعنى بالقضايا الجزئية ولكنها ترسم أماننا الخطوط العريضة؛ بمعنى أنّها تعطينا وعياً بالسنن العامة التي أجراها الله تعالى في الطبيعة، ووعد - وهو صادق الوعد - أن لا يغيّرها، ولا يبدّلها في قوله عزّ من قائل: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^١.

وهنا أحكام فقهية خاصة تهتم ببعض الجوانب المرتبطة بحياتنا من مثل أحكام القضاء، والزنا، وعموم أحكام الزواج، والأموال، والصلاة، والزكاة، والحج... وبالرغم من أن القسم الثاني من البصائر القرآنية، أي الأحكام الفقهية، يتمتع بأهمية بالغة باعتباره صادراً من الله سبحانه، إلا أن البصائر العامة في القرآن هي التي يجب أن نوليها الاهتمام التام لأنها تمثل القواعد العامة، والأصول، والمنطلقات، والبواعث.

وبالتالي فإننا إذا تركنا الأصول والقواعد، وجدنا على الاهتمام بالمسائل الجزئية الجانبية فإننا سوف نفقد الجانبين معاً، لأن البناء من دون قاعدة لا يستقيم، وكذلك الحياة فإنها ستنتهي إلى نفس المصير إن لم تستند إلى قواعد إلهية ثابتة وراسخة.

وعلى سبيل المثال فإن الصلاة لمن لا يعرف العقائد الإسلامية، ولا يلتزم بالخطوط العريضة في الإسلام، أو الصلاة في ظل الطاغوت، وتحت راية الظلم والانحراف والفساد، مثل هذه الصلاة قد لا تكون مقبولة عند الله تعالى، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^١، فعندما لا تكون الحياة قائمة على أساس التقوى فإن بناءها سوف يكون على جرف هار.

والتقوى تعني الالتزام العام بمسيرة الإسلام والخط الإسلامي في

الحياة سواء في الاقتصاد أم في الاجتماع أم في السياسة، فلو كانت مواقفنا غير إسلامية، أو كانت مواقفنا إزاء الكفار مبنيّة على الذل والتراجع، وفي المقابل على الأنفة والاستكبار على المؤمنين على عكس ما أراد الله تعالى، فبماذا ستفنعني صلاتي وقيامي؟ وإذا وليت أعداء الله، وعاديت أوليائه فما هو جدوى صيامي وتبّلي واجتهادي؟

ومن مشاكلنا الرئيسية نحن المسلمين أننا بدأنا نولي الاهتمام الأكبر للجوانب الثانوية والقشرية، فأفرغنا الإسلام من لبابه، وروحته، ومحتواه، وبدأنا نهتم بالقشور والجوانب التافهة. فكم من ملايين الساعات صُرفت من عمر المسلمين في تعيين طريقة المسح على الرأس، وفي البحث في أن القرآن هل هو مخلوق أم حادث، أو في بعض البحوث التاريخية التي لا تجدي نفعاً، في حين أن القضايا المهمة والمصرية من مثل تحديد إستراتيجية الأمة، وتعيين الخطوط العريضة للحضارة الإسلامية، وطريقة تعامل المسلمين مع الواقع المعاصر، وكيفية حل مشاكلهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، كل هذه القضايا وغيرها قد تُركت وأُهملت جانباً بتعمّد، وسبق إصرار، لأن هذه القضايا الجوهرية هي محور الصراع بين الإسلام والكفر.

وهكذا فإن المسلمين ابتلوا بهذه الاهتمامات الجزئية والجانبية، وتركوا

الأساسيات، ومعرفة حقيقة أن الإسلام أطروحة حياتية، وأنه يريد للإنسان أن يعيش فوق هذا الكوكب حياة سعيدة كريمة، لكي تكون حياته في الدنيا وسيلة لتكامله الروحي، ومدرسة لتربيته وتركيبته وبالتالي إعدادة للدخول في الجنة، فقد جاء في الحديث الشريف أن «الدُّنْيَا مَرْعَةٌ الْأَخْرَةِ»^١. فالقانون الإلهي إنما شرع للدنيا، وأحكام الشريعة صيغت للحياة.

هل في القرآن الكريم حل لمشاكلنا؟

وعلى هذا فإن الإسلام يريد أن تكون هذه الدنيا مهية للإنسان، ومساعدة لنمو الجوانب الخيرة فيه لكي يصبح هذا الإنسان أهلاً لدخول الجنة. فلنبحث عن الخطوط العريضة في الإسلام، ولنسأل أنفسنا: هل في القرآن الكريم حل لمشاكلنا نحن المسلمين؟

نعم.. لنتمسك بحبل الله الذي بين أيدينا وهو القرآن، ولنركب هذه السفينة التي جعلها الله تعالى لنجاة البشرية، ولنستضيء بهذا المصباح. إنني أدعو علماء الدين، والمفكرين، وحملة الأقلام، والخطباء أن يتدارسوا القرآن، ويتفكروا في المعنى الحقيقي للإسلام، وكيف نعود إليه، وكيف نحول حياتنا إلى حياة كريمة عزيزة، وكيف نعود إلى عظمتنا

وأما جدنا السابقة، فليتركوا البحث في المسائل الجانبية، وليتدارسوا القضايا الأساسية، ما هي أسباب التخلف، وما هي عوامل النهوض؟ ولماذا نجد بلداننا دائماً ومنذ عدة قرون في قائمة البلدان المتخلفة عسكرياً، واقتصادياً، واجتماعياً..؟

بين المسلمين وبني إسرائيل

إن المسلمين عندما تركوا دينهم ضُربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله كما حدث لبني إسرائيل، ولذلك يقول النبي ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلَ أَحَدُهُمْ فِي جُحْرٍ ضَبٌّ لَدَخَلَتْهُ»^١، ذلك لأن سنن الله سبحانه في الأمم واحدة.

ولننظر إلى قوله عزّ من قائل في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾^٢ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ...^٣، فقد منحهم الله تعالى التوراة، والسلطة، ورزقهم من الخيرات والبركات الوفيرة حتى تفوقت حضارتهم على الحضارات المجاورة لها، ثم زوّدهم الخالق عزّ وجلّ بالبيّنات من الأمر؛ أي بالبصائر والوسائل التي لو أخذ الناس بها لاهتدوا إلى الطريق القويم كما يقول تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾^٣.

١- بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٦٢.

٢- سورة الجاثية / ١٦ - ١٧.

٣- سورة الجاثية / ١٧.

وعلى هذا فإن المقصود من بَيِّنات الأمر هو معرفة الحياة، وبصائر كيفية النهوض وكيفية تحقيق الوحدة، لأن الوحدة هي أهم مطلب في حياة الأمم، فهي تعني وجود قيادة سليمة، وخلفيات قيِّمة، كما تعني أيضاً وجود برنامج واضح للتحرك، ولذلك فإن القرآن عندما يقول: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا..﴾ فإنه يقصد أنهم تركوا الحكم والنبوة والكتاب، ونبذوا جانبا بَيِّنات من الأمر فكانت النتيجة أن اختلفوا.

وبعد بيان قصة بني إسرائيل يحدثنا تعالى مباشرة عن المسلمين فيقول: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾^١، وهنا لنقارن بين قوله سبحانه: ﴿بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ وقوله: ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾، ومن خلال التأمل نكتشف أن الأمر هنا وهناك شيء واحد وهو الذي يتصل بالقيادة، والوحدة، والسياسة، ونظام الحكم، وبما يرتبط بأساسيات حياة الأمة. ولذلك يقول تعالى: ﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^٢، والآية هنا تعني أن على العلماء أن يكونوا القادة، بعد أن آتاهم الله البَيِّنات والشرعية من الأمر، فعليهم أن لا يخضعوا لأصحاب السلطة والثروة. وبطبيعة الحال فإن أصحاب السلطة والثروة هؤلاء يجهدون في ملاحقة العلماء وتتبع تحركاتهم، ويمارسون ضدهم ألوان الضغط من

١- سورة الجاثية / ١٨.

٢- سورة الجاثية / ١٨.

الترغيب والترهيب والإعلام المضلل، ولذلك فإن القرآن الكريم يأمر رسوله ﷺ والعلماء الذين هم خلفاؤه قائلًا: ﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^١.

ومن هذه الآية نكتشف إن محور عودة المسلمين إلى حضارتهم يدور حول هذه النقطة بالذات ألا وهي إستقلالية العلماء، واستقامتهم، وعدم رضوخهم لأهواء الحكام.

الظلم إفراز المجتمعات الفاسدة

ثم يستأنف السياق القرآني الكريم قائلًا: ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾^٢، وهذه الآية تكشف لنا عن حقيقة هامة جداً لو تعمقنا فيها لردعنا عن تأييد الظالمين أيًا كانوا، وهذه الحقيقة تتكشف لنا عبر البُعدين التاليين:

١- إنَّ القرآن الكريم يكشف عن أن للظالمين حزباً، وبذلك فإن أي إنسان ينتمي إلى هذا الحزب سيتحمل كل الوزر الذي يُرتكب في هذا التجمع، فالذي يسكت عن الظالم أو يؤيده فلا بد أن يُدخله الله سبحانه مدخله شاء أم أبى.

٢- إنَّ الظالمين يتحول بعضهم إلى أولياء للبعض الآخر، وهذا يعني

١- سورة الجاثية / ١٨.

٢- سورة الجاثية / ١٩.

إن التجمع الظالم سوف يُقَاد من قبل الظالم الأكثر ظلماً، ثم يستمر الظلم بالنزول من كل طبقة إلى الطبقة التي دونها حتى يصبح كل عنصر من عناصر هذا الحزب ظالماً لمن دونه، ومظلوماً من قِبَل مَنْ فوقه.

ولذلك لا بد أن نعرف إنَّ الحكم الظالم، والسلطة الفاسدة ما هما إلا إفراز للمجتمع الفاسد، وإن سكوتنا، وتراجعنا، واختلافنا مع الآخرين على قضايا تافهة، واهتمامنا بشؤوننا الخاصة ومصالحنا، كل ذلك هو السبب في سيطرة الطغاة وتسلطهم علينا، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾^١، كما وجاء في الحديث الشريف: «كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ»^٢، وفي هذا المجال أيضاً يقول الإمام علي عليه السلام: «لَا تَتْرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»^٣.

ضرورة التفتيش عن جذور الفساد

والمشكلة هنا مرتبطة بنا، ونحن أولى بمعالجتها من غيرنا، فالنظام الفاسد ليس إلا تعبيراً عن الفساد في المجتمع، ولذلك فإن علينا أن نفتش عن جذور الفساد ونقتلعها، ونبحث عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء

١- سورة الأنعام / ١٢٩.

٢- كنز العمال، ج ٦، ص ٨٩، الحديث ١٤٩٧٢.

٣- نهج البلاغة، وصية الإمام عليه السلام لولديه الحسن والحسين عليه السلام.

سيطرة الحكام الظلمة علينا، ولننظر في سلوكنا ونفكر كيف نحوله إلى سلوك رسالي لكي يزول هؤلاء الحكام.

ثم يقول تعالى بعد ذلك: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾^١، فالإنسان المؤمن المتقي الذي يناهض الظالمين، ويتقي الله، يضمن تعالى له زوال الظلم عنه، لأن شجاعته ستكون وسيلة للدفاع عن قضيته وفكرته.

ويستأنف تعالى معقباً على ذلك: ﴿هَذَا بَصِيرُ لِلنَّاسِ﴾^٢؛ أي أن المجتمع البشري بجميع أفراداه سوف يستفيد من هذه البصائر والرؤى في التفكير.

نحن مدعوون إلى تحمل المسؤولية

وخلاصة القول: إننا مدعوون أن نفكر، ونتذكر، وأن نتحمل المسؤولية، ولا نلقي بها على عاتق العلماء وحدهم، فكلنا نحمل علماً، وبقدر هذا العلم نتحمل المسؤولية، ولقد أُمِرَ المؤمنون بالتفكير والتعقل، فلنفكر، ونجعل عبادتنا التفكير والاستلهام من كتاب الله تعالى، ولنطرح على أنفسنا الأسئلة الأساسية السابق ذكرها، فهناك البعض منا يهرب - للأسف الشديد - من محاور الصراع، ليلوذ بالتفكير في القضايا الجزئية. هذا في حين أن علينا أن نفكر في السبب الذي يكمن وراء تخلف

١- سورة الجاثية / ١٩.

٢- سورة الجاثية / ٢٠.

المسلمين رغم أنّ عددهم يتجاوز المليار إنسان، فلماذا يتحكم بمصيرهم مجموعة من الحكام الظلمة المستبدين، ولماذا تُمتصّ مواردهم من قبل الغرب والشرق؟ إذا كان المسلمون خير أمة أُخرجت للناس فهل أوضاعهم تشير إلى هذا الخير؟ إنّ الشواهد تشير إلى أنّ البلدان الإسلامية هي أفقر البلدان في العالم، وإنّ أكبر عدد من الحروب تحدث فيها، فلماذا آل المسلمون إلى هذه الأوضاع المتردية؟

مثل هذه التساؤلات وغيرها نجد الإجابة عليها من خلال دراسة البصائر والرؤى القرآنية، وتطبيقها على واقعنا العملي لكي نعمل على إزالة هذه السلبيات وفقاً لتلك المقاييس والمعايير القرآنية.



السبيل إلى تجاوز العجز الحضاري

القرآن الكريم يُبعد الإنسان عن أفق الماديّات، ويزوّد به بنظرة بعيدة المدى إلى عمق المستقبل حيث النعيم الأبدي، أو النار الملتهبة الشديدة الوقود التي لا رحمة ولا مهلة فيها ولا خلاص منها.

وبين هاتين العاقبتين العظيمتين يعيش قلب الإنسان المؤمن، وعبر هذا الأفق البعيد ينظر، ولذلك تتعبأ نفسه جهاداً وتضحية وفداء، ويستعد للموت في سبيل الله في أية لحظة معتبر إياه أفضل عاقبة، بل أفضل هدية ونعمة، فالإنسان يصبر عند نزول البلاء، أما من تواترت عليه النعم فلا بد أن يشكر ربّه.

وفي هذا المجال يروى عن الإمام علي عليه السلام أنه قال - في كلام خاطب به أهل البصرة -:

«إِنَّهُ لَمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قَوْلُهُ ﴿الْم * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ

يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١٥٩﴾ عَلِمْتُ أَنَّ الْفِتْنَةَ لَا
تَنْزِلُ بِنَا وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ اللَّهُ
تَعَالَى بِهَا؟

فَقَالَ: يَا عَلِيُّ! إِنَّ أَمَنِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوَلَيْسَ قَدْ قُلْتُ لِي يَوْمَ أُحُدٍ، حَيْثُ
اسْتَشْهَدَ مَنْ اسْتَشْهَدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ
فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ لِي: أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟

فَقَالَ لِي: إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ، فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذَا؟

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ
مِنْ مَوَاطِنِ الْبُشْرَى وَالشُّكْرِ^١.

وهكذا فإن الإنسان يرتفع إلى هذا المستوى الرفيع ضمن أفق القرآن
ومنطقه وإطاره. فأيات الجهاد ليست مقتصرة على تلك الآيات التي تبين
فلسفة الجهاد وحكمته، أو تحرّض الإنسان عليه، لأن إبعاد الإنسان عن
حياة الماديات، والتخليق به في أفق المعنويات هما اللذان نقرؤهما خلف
كل آية قرآنية، وهذا هو الذي يمنح الإنسان روح الجهاد والتضحية في

سبيل الله تعالى.

لا مفر من الموت

إنّ الحياة ما هي إلّا موتٌ يطلبك، وموتٌ تطلبه، ونحن عادةً ما نهرب من سكرة الموت كما يشير إلى ذلك عزّ وجلّ في قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾^١، ولكن أين المهرب؟ فكم حاولنا أن نبتعد عن الموت، وكم منّينا أنفسنا بالخلود، وطول العمر، ومع ذلك فقد جاءت سكرة الموت.

وبين سكرة الموت، والنفخة في الصور ما لا يعلمه إلّا الله تعالى من السنين والقرون، إلّا أن هذه المسافة يختصرها القرآن الكريم في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾^٢، لأنّ يوم الوعيد آت، وكل آت قريب.

ثم يستأنف تعالى قائلاً: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾^٣ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ^٤؛ لقد كنّا غافلين عن هذه الحقيقة، ونحن بالذات الذين نعيش اليوم فوق الأرض لا بد أن ننام طويلاً تحت هذه الأرض، ثم ينفخ في الصور فنقف

١- سورة ق / ١٩.

٢- سورة ق / ٢٠.

٣- سورة ق / ٢١ - ٢٢.

أمام رب العزة للحساب، وهناك نرى ما لم نكن نستطيع رؤيته في هذه الدنيا، فنحن الآن محجوبون عن الحقائق، ولكن بصر الإنسان يتحول في يوم القيامة إلى حديد، وحينئذ ينظر إلى أعماله وقد تجسّدت أمامه. وهذا ما نستفيدة من آيات عديدة في القرآن، ولعل هذه الآية تشير إلى هذه الحقيقة أيضاً، فبصر الإنسان يستطيع في يوم القيامة أن ينفذ في كل مكان، ليرى حقيقة كل شيء.

الإنسان العاقل من يتعظ بالموت

ويستمر السياق القرآني الكريم قائلاً: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيََا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾^١، إن الإنسان العاقل عليه أن يستغل هذه الفرصة ليعود إلى رشده، ويتذكر إن أمامه مراحل أبسطها الموت، والموت بدوره هو أبسط المراحل في مسيرة الإنسان الأخروية.

إن منظر الإنسان وهو ينازع سكرات الموت منظر مهيب رهيب، ومن الجدير به أن يتعظ بهذا المنظر طيلة حياته، وكفى بالموت واعظاً، أما الذي لا يتعظ بالموت رغم أنه يرى بأم عينيه أحبابه، وأعزائه، وأقاربه يذهبون أمامه، فمثل هذا الإنسان لا يمكن أن يتعظ بشيء آخر، لأن قلبه أقسى من الحجر.

فلنلنّ قلوبنا بالذكر والدعاء والتسبيح والإنابة والبكاء، فالله سبحانه وتعالى يُحب من عباده - وخصوصاً الشباب منهم - التضرّع والخشوع. إن هذا الإطار هو إطار معرفة الدنيا والآخرة، ومعرفة الله تعالى خالق الدنيا والآخرة، وهذا الإطار يخلق في الإنسان روح الجهاد والتضحية، وروح العمل الدؤوب في سبيل الله عزّ وجلّ.

الجهاد الحق

والجهاد الحق يعني من جهة: مجاهدة النفس والشيطان والشهوات، ومن جهة أخرى: محاربة أعداء الدين. ولو أن المسلمين عرفوا القرآن حق معرفته، وعاشوا روحه، واقتبسوا نوره، وتدبروا آياته لما وصل بهم الحال إلى ما هم عليه الآن رغم إن عددهم يتجاوز الآن المليار، إلّا أن المسكنة تحيط بهم من كل جانب.

ونحن عندما نرى إقتصادنا متخلّفاً وصناعتنا متخلّفة، بل إن حياتنا كلها تعيش حالة التخلّف، فهل يمكن أن نفكر في مقارعة المستكبرين ونحن محتاجون إليهم، ولا بد أن نشترى كل شيء منهم من قبيل الصواريخ والطائرات، والأجهزة الإلكترونية، بل حتى الأدمغة نستوردها منهم؟! وهكذا فإننا نعيش عصر التخلّف، وهذا التخلّف سيستمر حتى يأتي دور الإسلام الحق الذي هو إسلام القرآن، والجهاد، والتضحية في سبيل

الله تعالى، الإسلام الذي يأمرنا قائلًا: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^١، الإسلام الذي يرفع الإنسان من مستوى النظرة المادية الضيقة إلى مستوى النظر إلى الآخرة.

لا بد أن نعود إلى هذا الإسلام الذي يقول لنا بصراحة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^٢، فأين تلك القوة العسكرية الإسلامية، أين الصناعات الحربية التي نستقل بها عن الاستكبار، بل أين صناعتنا وزراعتنا؟ وإلى متى التخلف والاعتماد على مجموعة براميل نفط نبيعها إلى الغرب لتكرس تبعيتنا له؟!

إن الإسلام يقول لنا: «مَنْ اعْتَدَلَ يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ»^٣. إنه أمر يأمر المسلمين أن تكون أوضاعهم أفضل، وكلمتهم أعلى، وأن لا يكون للكفار عليهم من سبيل، فأين هو هذا الإسلام يا ترى؟

إنني شخصياً يائس من الأنظمة، فلو كان بإمكانها أن تفعل شيئاً لفعلته حتى الآن، ولو كانوا صادقين في شعاراتهم لحققوا جزءاً منها على الأقل، ولما تردّت أوضاعنا يوماً بعد آخر، ورجاؤنا الحقيقي في الله تعالى أولاً، ثم في الشعوب المؤمنة. فكل واحد منّا لا بد أن يراجع حساباته من جديد، ويفكر في مستقبل أمته، فمن لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم.

١- سورة الأنفال / ٢٤.

٢- سورة الأنفال / ٦٠.

٣- الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، ص ٣٤٢، والرواية مروية عن الإمام الصادق عليه السلام.

وعلى هذا فإن الاهتمام هو بداية المسيرة التغييرية، فكل واحد منّا يجب عليه أن يفكر في أمته وفي تخلفها في جميع جوانب حياتها، وكيف نُعيد أمتنا هذه إلى سابق مجدها، فالمهندس المسلم الذي يذهب إلى الغرب لا بد أن يفكر كيف يعود بأفضل العلم والتجربة من الغرب، وهكذا الحال بالنسبة على أساتذة الجامعات، والطلاب، والعمال، والفلاحين، فالعامل والفلاح ينبغي أن يفكر في مستقبل أمتهم، فالعامل الذي يفكر في زيادة الأجور، والفلاح الذي تكون الراحة هي همّه مسؤولان عن تخلف الأمة. إننا جميعاً مسؤولون عن هذه النهاية التي آلت إليها أمتنا، فلا بد أن نعود إلى الإسلام، ونستلهم منه روح التضحية والفداء.

واجب الحركات الإسلامية

والحركات الإسلامية التي تُعتبر اليوم الطليعة لتحرك الأمة الإسلامية لا بد أن تستشعر المسؤولية، وتعمل بواجبها المتمثل في تغيير الأوضاع إلى الأفضل في أسرع وقت ممكن، وأن تستغل هذه الظروف لتوعية الجماهير، وإلا فإن الجماهير ستعود على حالة الذل والجمود شيئاً فشيئاً؛ فتنسى أمجادها، وتنسى أن الواحد منها كان في يوم من الأيام بإمكانه أن يهزم جيشاً من الكفار، ويغيب عن بالها أن الله تعالى قد سبق وأن نصرها بالرعب، ووعدّها بالنصر إذا توكلت عليه، وطبقت مناهج كتابه.

وهكذا لا بد أن يتسلح شبابنا بالشجاعة، ولا بد أن يتدرب كل واحد منهم على مختلف المهارات الفنية المفيدة للحياة، ولا بد أن يصبح الواحد منّا كعشرة من أعداء الله، كما ويتعيّن علينا أن نُعلّم الشعوب كيف تقاوم الأعداء، ولا بد أن ندخل الرعب في قلوبهم أينما كانوا، وأن لا نخشاهم، ولا نخاف الموت في سبيل الله تعالى، فمن خشي الموت فإنه ميت فعلاً. ولنعمل على أن نستقل بصناعاتنا حتى لو كلفتنا الصناعة المحلية أضعاف ما نشتره من الخارج، المهم أن نصنع محلياً.

وهكذا لا بد لنا من أن نقوي اقتصادنا، ونسحب أرصدتنا من الخارج، ونستثمرها في داخل بلداننا في مجال الصناعة والزراعة؛ فلماذا نبقي أرصدتنا في بنوك أجنبية تدعم الصناعات التي تديرها الأيدي اليهودية، في حين لا نوظفها في بلدان إسلامية فقيرة من مثل السودان، وبنغلادش، وشمال أفريقيا؟

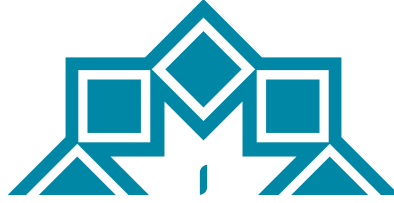
إن شعوبنا هي التي ينبغي أن تقرر مصيرها بيدها، وهي المسؤولة عن تصحيح الأوضاع وذلك من خلال العودة إلى القرآن الكريم، لأنّ هذا الكتاب هو إطار حضارتنا، ونورها، ومستقبلها، فلا بد من أن نرجع إلى آيات القرآن آية آية، ونطبقها جميعاً دون أن نستثني آية واحدة منها.

وفي إطار تطبيق القرآن وفهمه، والاستنارة بهدى أحكامه وتعاليمه

وإرشاداته، والعمل بآياته الكريمة، سوف نعيد بإذن الله عزّ وجلّ أمجاد
حضارتنا التليدة، ومنتصر على قوى الاستكبار، ونكوّن لأنفسنا كياناً
مستقلاً متكاملاً من جميع الجهات.

القرآن حكمة الحياة

- ١ - حكم القرآن
- ٢ - المنهج القرآني والعمل الرسالي
- ٣ - القرآن منهج التكامل الإنساني
- ٤ - القرآن والحقائق الكبرى



حِكم القرآن

ليس القرآن الكريم كسائر الكتب السماوية الأخرى التي إمتدت إليها يد التحريف من حذف وإضافة، وأصبحت من الكتب المنسية التي تعيش على هامش الحياة، بل إن القرآن هو كتاب عموم الحياة سواء الحياة الدنيا أم الآخرة.

فكما أن القرآن هو كتاب الآخرة فإنه قبل ذلك كتاب الحياة الدنيا، فالحكمة القرآنية لا تفصل بين الحياتين؛ الأولى والآخرة اللتين تُكمل إحداها الأخرى، كما جاء التأكيد على ذلك في الحديث الشريف: «**الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ**»^١.

القرآن كتاب حياة

وعلى هذا فإن القرآن ليس كتاباً للموتى بل هو كتاب للأحياء لكي

١ - عوالي اللئالي، ج ١، ص ٢٦٧.

يتزودوا به في حياتهم، ويستثمروه لحين الموت وما بعده؛ أي إن فيه زاد الدنيا والآخرة، وزاد القرآن هو ما فيه من برامج ومناهج إلهية تنظم الحياة وشؤونها، وتهيئ الإنسان في نهاية المطاف لاستقبال الحياة الأخرى بما يسعده، ويخلده في نعيمها الأبدي.

ونحن - كمسلمين - من الواجب علينا تلاوة هذا القرآن، وتبصّر معانيه، وتدبر آياته، وبالتالي تطبيق ما رسم لنا من برامج ومناهج ومفاهيم حياتية خطوة بعد خطوة حتى نبلغ هدف الكمال الذي يريده لنا القرآن في هذه الحياة، لنخرج منها بعظيم الثواب والأجر الإلهيين من خلال طاعة ما أمرنا الله تعالى به، والانتهاء عما نهانا عنه.

فالذي لا يتلو القرآن بتبصّر وتدبر، ولا يعمل وفق البصائر والمفاهيم القرآنية فإنه لن ينال الثواب لا في دنياه، ولا في عقباه، وفي الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «إشارة إلى هذا المعنى: **«رُبَّ تَالِ الْقُرْآنِ وَ الْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ»**، ولعل أكثر ما وصف القرآن به المؤمنون هو كونهم تالين لكتاب الله حق تلاوته، ومتدبرين لآياته.

كيف ننتفع بالقرآن في حياتنا؟

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف ننتفع بالقرآن ونستثمره في حياتنا؟ وللجواب على هذا السؤال المهم نقول: إن الحياة الدنيا - كما هو

الحال في الحياة الأخرى - بحاجة إلى خريطة متكاملة يتضح من خلالها المسار الصحيح، ويُتجنب ما فيها من مهاو، ومسالك خطيرة، وبدون إتّباع هذه الخريطة، والاهتداء بدليلها، فإن السائر في الحياة يكون حاله كحال من يسير وسط حقل من الألغام سيراً عشوائياً دون معرفته بمواقع هذه الألغام.

فالقرآن هو بمثابة خريطة هذه الحياة المحفوفة بالأخطار، وعدم الاهتداء بهذه الخريطة، واتّباع ما جاء فيها من توجيهات وإرشادات سيوقع الإنسان في منزلق السقوط والشقاء في الدنيا والآخرة.

والقرآن هو ينبوع الحكمة الثّر، وفيه ضالة الإنسان في البحث عن السعادة، والأمن، والسلام، والعيش الهانئ الرغيد في الحياة، وهو الوسيلة التي يُنتقل بها من السعادة المؤقتة في هذه الدنيا إلى السعادة الأبدية في الآخرة، فما أكثر خسران ذلك الذي يجعل بينه وبين القرآن حجاباً، فلا ينتفع به، ولا يهتدي بهداه، ولا يأخذ بصراطه المستقيم، فيخسر حينئذ دنياه وآخرته وهذا هو الخسران المبين.

رأس الحكمة مخافة الله

وهكذا فإن القرآن هو ينبوع الحكّم ومنهلها، ولعل زبدة هذه الحكّم هي «مخافة الله» كما يقول الحديث الشريف: «رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ

عَزَّ وَجَلَّ^١، وهنا يتساءل الإنسان، كيف أصبحت مخافة الله رأس الحكمة كلها؟

الجواب هو أن الفضائل لما كانت تتدرج ويتصل بعضها ببعض، فإنها في تدرجها وتواصلها هذا تكون كهيئة الهرم؛ أي أنها تتدرج من القاعدة حتى تبلغ القمة، وهذه القمة هي الإيمان بالله ومخافته عزَّ وجلَّ، ويمكننا أن نصوِّر الإيمان والتقوى التي هي مخافة الله تعالى بالنهر العظيم الذي ترابط روافده، ويتصل بعضها ببعض حتى يكون الإيمان هو بمثابة هذا النهر، والفضائل هي بمثابة تلك الروافد المتصلة والمتراطة مع بعضها. وهكذا فإن مخافة الله تعالى هي حقيقة ومظهر الإيمان، ولا معنى للإيمان بدون المخافة والتقوى، فالذي يؤمن بالله لا بد أن يخافه ويتقيه من خلال الامتثال لأوامره والاجتناب عن نواهيه، ومن هنا كان الإيمان رأس الحكمة، ذلك لأن الإنسان يعيش بطبيعته حالتين لا ثالث لهما؛ حالة إتباع الهوى، وحالة الاهتمام بالحق؛ أي أن أمام الإنسان في كل حركة وسلوك باين لا بد من أن يختار أحدهما ليدخل منه؛ إما باب الهوى الذي يهبط به إلى الأسفلين، وإما باب الحق الذي يرفعه إلى درجة الصالحين.

الأنانية مصدر الرذائل

والحق هو إطار الفضائل جميعاً، واتباعه يعني الولوج في عالم الفضيلة والسعادة الروحية، في حين إن الهوى والأنانية هما المنزلق إلى الرذائل والمعاصي والفسوق، واتباعهما يعني السقوط، والشقاء، والفوضى، والضياع.

وهكذا فإن الأنانية، والانطواء على الذات، والتحرك في إطارها وحسب، كل ذلك يعني أن الإنسان يحبس نفسه في سجن مغلق، لأن الذي يتحرك بدافع الأنانية وحب الذات لا تجده يحسب للآخرين حسابهم، ولا يهتم إلى ما لهم من حقوق عليه ولو كانوا أقرب الناس إليه، بل إنه قد يرتكب العدوان على حقوقهم من أجل ضمان مصلحته، ومنافعه الشخصية، ولو تطلب ذلك التوسل بالأساليب الملتوية فلا وازع له، ولا شيء يردعه عن تحقيق مطامح الأنا، ومشتهيات الذات إلا إذا خرج من هذه الزنزانة إلى رحاب الإيمان.

والإيمان بحقوق الآخرين يعني الإيمان بالخالق تعالى، فهناك الحقوق المتبادلة بين كل الكائنات، والتي بمراعاتها يسود التنظيم والانسجام في الحياة، فلا بد من مراعاة حقوق الأرض، والنبات، والحيوانات، والمياه، والثروات، وحقوق الآخرين فيها، فالإيمان بالآخرين، وبالموجودات

والكائنات الحية ينبع كله من المصدر الأول للإيمان، ألا هو الله تبارك وتعالى، ربّ الكون والوجود.

فالذي لا يؤمن برب الأرض والسماء لا يؤمن بالأرض والسماء، والذي لا يؤمن برب الناس، لا يؤمن بالناس، لذلك كان الإيمان بالله تعالى أصل كل إيمان، فالذي يؤمن بالله يؤمن بداهة بكل قيمة ومثال في الحياة. ومن هنا كانت أعظم مصائبنا وخسائرنا جهلنا بالقيمومة الإلهية، وعدم معرفتنا بالله سبحانه وتعالى، فنحن قد نلهج باسمه ولكننا لا نعيش عمق المعرفة بصفاته، وأسمائه؛ فلا نعرف معنى علمه الغيبي الأزلي، وأنه المليك المقتدر، ولا ندرك معنى أن بيده كل أمر، فنحن نردد قول «يا الله»، ولا نحاول أن نفهم ما في هذا الاسم المقدّس، والكلمة العليا من أبعاد وآفاق غزيرة في المعنى والقصد.

وعلى هذا فإن الإيمان بالله، وخشيته، ومعرفته، كل ذلك يمثل رأس كل حكمة، وبالتالي رأس كل فضيلة، فمخافة الله هي الحكمة الأولى، وعنّها تنحدر سائر الحُكم.

إن الوجه الحضاري للحياة يتمثل في أن تؤطّر بالحرية والكرامة والاستقلالية، فمن أجل بلوغ معالم الحضارة في الحياة لا بد للإنسان من أن يتصرف ويتحرك في حياته من منطلق الحكمة والوعي، ويتخلّق

بالأخلاق الإيمانية التي تملئها عليه القيم والمفاهيم الرسالية كي يبلغ هدفه الحضاري؛ أي الحياة الحرة، الكريمة، المستقلة، وإلا فإن مصيره أن يبقى على حالة التخلف، والاضمحلال، والتبعية للآخرين، وخضوعه لسيطرتهم.

ولكي يتحرك الإنسان نحو الأهداف الحضارية لا بد من أن يعي سُنَّة التغيير ويعمل بها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^١، فلكي نصبح أناساً حضاريين سائرين في ركب التقدم والازدهار، ولكي نعيش أحراراً بيدنا أسباب القوة، لا بد أن نتحرك، ونعمل، ونغيّر ما بأنفسنا بالشكل الذي لا يدع الآخرين أن يسيطروا على مقدراتنا، ويفرضوا أنواع الهيمنة علينا؛ كأن تكون هيمنة فكرية، أو ثقافية، أو إجتماعية، أو إقتصادية وغير ذلك.

مفردات برنامج التغيير في القرآن

وبرنامج التغيير هذا نجده في القرآن الكريم بما يرسم لنا من خطوات تقودنا نحو الحضارة وهي:

١- التوكل وروح الإقدام

لعل في مقدمة الوصايا والصفات التي ينبغي للمؤمنين العمل بها هي صفة التوكل على الله، وقد أكد القرآن الكريم مراراً، على هذه الصفة

الإيمانية التي تسمو بالمؤمنين نحو قمة العزة والكرامة والاستقلالية في الحياة، ومن ذلك أقواله تعالى:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^١.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^٢.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^٣.

والتوكل على الله عزّ وجلّ معناه أن الإنسان عندما يتحرك في مسيرته لبناء صرح الحضارة الإلهية، فإنه لا يهاب في مسيرته هذه ولا يخشى أحداً غير الله، ولا يخاف في ذاته لومة لائم، وللأسف فإننا - نحن المسلمين - قد وُلدنا، ورُبينا، ونشأنا في دوامة من الحذر والخشية، فنحن نكاد نخشى كل شيء؛ الظلام، وظواهر الطبيعة، ونتوهم الأوهام، ونعيش هواجسها، ونهاب ونرهب كل عارض جديد علينا.

وبدلاً من أن يُبدد الآباء هذا الخوف، ويزيلوا من أذهاننا تلك الأوهام، فإنهم عزّزوا، وكرّسوا معاني الخوف في عقولنا، فَتَطَبَّعْنَا عَلَيْهِ، حتى أصبح وكأنه طوق حديدي يكبل أعناقنا، أما القرآن فقد عمل على تبديد هذا الخوف ومعالجته في وصاياه وإرشاداته التربوية من خلال التوكل على الله تعالى، لأن الذي يتوكل عليه سبحانه سوف لن يخشى شيئاً سواه.

١- سورة الطلاق / ٣.

٢- سورة التوبة / ٥١.

٣- سورة آل عمران / ١٥٩.

إن للإنسان نوعين من ردود الفعل عندما يواجه موقف صراع يبعث في نفسه حالة الخوف؛ فإما أن يكون شجاعاً، فيداهم ويهاجم، وإما أن يكون جبناً فيداهن ويحجن، والموقف الشجاع هو موقف التوكل على الله، أما الموقف الجبان فهو موقف ذلك الإنسان الذي يعيش حبساً لهواجس الذات، ضعيف الإيمان، ومثل هذا الإنسان لا بد وأن ينكسر، وينهزم، ويسقط حين يهرب من ذلك الموقف لأنه سيصبح ضحية للمهاجم الذي يتعقبه يمناً ويسرة، وفي هذا المجال قيل للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «بأي شيء غلبت الأقران؟ فقال عليه السلام: ما بقيت رجلاً إلا أعانني على نفسه»^١.

فالإنسان - إذاً - سوف يريح المواقف الكثيرة إذا ما تحلّى بالشجاعة النابعة من روح التوكل، وبالعكس فإنه سينهزم وينحسر كل موقف ومعركة إذا كان يعيش هاجس الخوف والتردد الذي مصدره حب الذات والأنانية، فالرجال يعرفون بالمواقف ورُبَّ كلمة تقود الإنسان إلى الجنة، ورُبَّ أخرى تهوي به إلى جهنم، ولعل أشجع مواقف المتوكلين قول كلمة الحق ولو عاد ضررها على القائل، والإفصاح بالحق أمام الجائرين الذين يكرهون سماع كلمة الصدق والحق، ويحاربون أهلها، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في الحديث الشريف:

«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»^٢.

١ - نهج البلاغة، قصار الحكم، الحكمة ٣٢٤.

٢ - الشهيد الأول، القواعد والفوائد، ج ٢، ص ٣٧٥.

وللأسف فإن أغلب الناس يعيشون أجواء الخشية والخوف، وفي مقدمة ذلك الخوف من الجهر بكلمة الحق، ومن النتائج المترتبة على التصريح بها، وللإمام علي عليه السلام كلام جميل في هذا الصدد يقول فيه: «إِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ لَخُلُقَانٍ مِنَ خُلُقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَإِنَّهُمَا لَا يُقَرَّبَانِ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ»^١.

ومن هنا ينبغي للإنسان المؤمن أن لا يتردد في إطلاق كلمة الحق، ولا يخشى عواقبها، بل إن الله تعالى سوف يسدده في أمره إن هو أفصح بها دون أن يخشى لومة لائم.

ومن هنا نتبين إن روح الشجاعة والتحدي النابعين من التوكل هما سر الفلاح في الحياة، ولعل أغلب حالات الفشل والإحباط التي يُصاب بها الناس في حياتهم سببها الخوف والتردد اللذان يملآن جوانحهم، فلا تجد لديهم روح الشجاعة التي تجعلهم يُقدّمون، ويقتحمون المواقف، ويمضون في السعي نحو ما يطمحون إليه، ولو أنهم جرّبوا الإقدام والمضي دون خوف وبعد التوكل على الله تعالى، وقاوموا المعارضة الاجتماعية لكَسّوا بأيديهم النتائج الإيجابية، والنجاح في إقدامهم.

٢- إستشارة ذوي الروح الشجاعة

والمعارضة الاجتماعية هي حصيلة روح الجبن، والتردد، والخوف المعشّشة في المجتمع، فتجعله يتعامل مع المواقف المختلفة من خلال مفردات الهروب والفشل والانطواء، وإنّ أولئك الذين ينصحونك بعدم الإقدام والمبادرة إنما هم أعداؤك من غير أن تشعر أنت، ومن غير أن يشعروا هم أيضاً، فأنت لا تشعر وهم لا يشعرون أنهم يعملون من خلال نصح كهذا على تحطيم ذاتك وشخصيتك.

ومن جميل الإشارات القرآنية إلى هؤلاء وأمثالهم ما جاء في سورة الناس عندما يصفهم القرآن بـ «الوسواس» في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، فهذا هو عملهم الذي يوسوسون من خلاله في صدور الآخرين بأن يقولوا لهم: لا تفعلوا، لا تُقدموا، تجنبوا، إحذروا.. وما إلى ذلك من عبارات التشييط والإحباط، فلا همّ لهم سوى بعث الخوف والتردد في قلوب العاملين.

والوسواس يأتي من طريقتين؛ من الداخل، ومن الخارج، فالذي يأتي من الداخل هو هاجس الخوف والتردد الذاتي الصادر من قلب الإنسان، ونفسه الأمّارة بالسوء، وأما ما ينفذ من الخارج فيتمثل في التشييط الاجتماعي على يد أولئك الذين يحيون هاجس الخوف، فيخافون،

ويخيفون غيرهم.

ولأجل أن يتخلص الإنسان من مطرقة الخارج، وسندان الداخل ينبغي عليه أن يتوكل على الله تعالى، ويقاوم الوسوس بنوعيتها؛ أي النفس الأمارة بالسوء، ووسوسة الآخرين الذين نهت الأحاديث والروايات الشريفة عن استشارتهم في الأمور لأنهم يتحدثون وينطقون عن الشيطان، وقد نهت الأحاديث استشارة الجبان والبخيل.

٣- عدم تهويل الأخطاء البسيطة

ينبغي على الإنسان المؤمن أن لا يهول على نفسه القضايا والأمور، فإذا أردت - مثلاً - أن تصبح خطيباً، فلا تحدّث نفسك بما يجعلك تتردد وتفشل، كالخوف - مثلاً - من التلعثم، والخطأ، والخجل عند الوقوف أمام الحضور، بل ابدأ هذه التجربة الجديدة بخطواتها الأولى حتى تصل إلى المرحلة النهائية، ولأمير المؤمنين عليه السلام في هذا المجال كلمة معبرة يقول فيها: «قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ»^١.

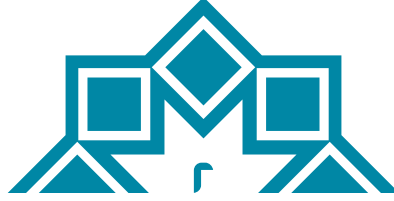
٤- استقلالية الشخصية

إنّ المؤمن يجب أن لا يكون في عمله مقلداً للآخرين ممن هم في مستواه الفكري والعقلي، بل ينبغي عليه أن يربي نفسه على الابتكار والإبداع،

ويكون مستقلاً في شخصيته، وأن لا يعتمد إلى تقليد الآخرين إلا من باب الاقتداء الحسن، فكثيرون هم الذين فشلوا في أعمالهم، ونشاطاتهم بسبب تقليدهم للآخرين، فالتقليد يُفقد الإنسان أحياناً قابلياته وقدراته الذاتية في العمل، في حين أنهم لو كانوا قد عملوا على تطويرها لنجحوا وتقدموا. وهكذا فإنَّ الإنسان الناجح هو من يمتلك الثقة الكاملة بنفسه، والقادر على تنمية مواهبه، فهو لا يقلّد الآخرين ولا يحاول أن يجعل من نفسه صورة طبق الأصل عنهم، بل يكون نسيج نفسه فحسب.

هـ - مقاومة الإحباط

يجب على العامل أن لا يدع مجالاً للأخطاء أن تُثبط عزيمته فيخيب سعيه نتيجة خطأ أو خطئين يقع فيهما، فالخطأ يجب أن لا يكون مصدر إحباط ويأس وفشل يبعث على الانطواء والتقاعس والتراجع، وبالتالي يتحول إلى عامل في تحطيم شخصية الإنسان، بل ليكن الخطأ خطوة تجريبية في حياة الإنسان المؤمن، أما إذا تكرر هذا الخطأ فحينئذ يجب أن يَلام عليه هذا الإنسان لقول الرسول ﷺ: «لَا يُلْسَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ»^١.



المنهج القرآني والعمل الرسالي

هناك مسلكان يسلكهما التالون لكتاب الله العزيز في فهم وإدراك المعاني القرآنية؛ فَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ إِذَا تَلَاهُ هَبَطَ بِمَعَانِيهِ السَّامِيَةِ، وَمَفَاهِيمِهِ الْقِيَمَةِ النَّيِّرَةِ إِلَى الْمَسْتَوَى الَّذِي يَرُوقُ لَهُ فِي الْفَهْمِ وَالْإِدْرَاكِ، فِي حِينَ أَنْ أَوْلَثَكَ الْمُبْصِرِينَ الْبَاحِثِينَ عَنِ الْحَقِيقَةِ يَحَاوِلُونَ حِينَ تَلَاوَتِهِمُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الارتفاع والسمو إلى مستوى بصائره وحقائقه.

ولذلك كان من الطبيعي أن يحدث بون شاسع، وهوة عميقة بين رؤية وتفكير ومنهجية كل من هذين الفريقين، وهنا نتساءل: أيما السبيلين أحق بالسلوك؛ أَنَهْيَطَ بِمَفَاهِيمِ الْقُرْآنِ وَقِيَمِهِ وَنَجَرَّهَا إِلَى مَا يَحْلُو لَنَا وَمَا نَهْوَاهُ مِنَ التفسير أم نرتفع نحن إلى مستوياتها؟

وبالطبع فإن السلوك الثاني هو الأحق بالاتباع، لأن أتباع الفريق الأول يسعون جهد إمكانهم لتأويل معاني القرآن ومفاهيمه حسب أهوائهم

وميوهم، فهم بعملهم هذا يضلّون عن الجادة، ويوغلون في ضلالهم وغيهم وربما ييقون على حالتهم هذه إلى نهاية حياتهم، في حين أن أولئك الذين لا يستجيبون لأهوائهم، ويعملون على إمامتها من خلال مخالفتها فإنهم إنما يرتفعون بذلك إلى مستوى الفهم الحقيقي لكتاب الله، وبالتالي فإنهم يرتفعون في سلّم الكمال إلى الدرجات العلى في دنياهم وآخرتهم.

والقارئ الحقيقي للقرآن كلما تلا آية وردّ ذكرًا سمى وارتقى درجة من درجات الكمال، وأخرى من درجات الجنان بين كل درجة والتي تليها كما بين السماء والأرض، فذلك السمو العظيم الذي يحظى به المؤمنون في روضات الجنان إنما هو نتيجة إرتفاعهم وسموهم في هذه الدنيا بتلاوة آيات الله تعالى، والإندماج الروحي والعمل بمعانيها الشريفة؛ فالآية في كتاب الله هي في نظر المؤمن معراج له في هذه الدنيا نحو الكمال، في حين أن ذلك الذي يقرأ القرآن ولا يفهم منه إلّا الظاهر، والمعنى السطحي فإن تلاوته هذه سوف لا تتجاوز حنجرته، بل إنّ هناك من الناس من يقرأ القرآن وهو لا يؤمن به، فمثل هؤلاء يلعنهم القرآن كما جاء في الحديث الشريف: «رُبَّ تَالِ الْقُرْآنِ وَ الْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ»^١.

الحقيقة القرآنية أعظم الحقائق

ونحن حينما نتلو الآيات القرآنية التي تحدثنا عن الحقائق الكبرى نجد أن من بين هذه الحقائق، الحقيقة القرآنية نفسها باعتبار أن القرآن هو التجلي الأعظم لله تعالى، ومأدبته، والمعين الروحي الذي نهله منه، وهو النور الإلهي الذي يتجلى لعباد الله، والحبل المتين، والعروة الوثقى بين الإنسان وربّه، فهو - إذن - الحقيقة الكبرى، والمنهج الأسمى.

وكم هو تافه وغافل ذلك الإنسان الذي يقرأ القرآن، ويعيش أجواءه، ويستمتع إليه ولكنه في نهاية المطاف لا يقتبس ولو ومضة نور من هذا السراج الإلهي العظيم، ولا يغترف ولو غرفةً من نبع هذا الكلام الذي ليس فوقه كلام، فمثله كمثل ذلك العطشان الجالس على ضفاف رافد رقاق ينظر إلى هذا الفرات العذب ولكنه لا يمد يده ليغترف منه ما يطفئ به ظمأه ويروي عطشه.

هذا في حين أن الإنسان المؤمن يزداد وعياً وإيماناً وإدراكاً كلما نظر في آيات الله، وكلما أعطى أذناً صاغية ليستمع إلى آياته تتلى عليه، فمثل هذا الإنسان يزداد حكمة، وتفقهاً للحقائق لما يستشعره من الخشوع في قلبه؛ هذا الخشوع الذي يتعاضم في كيانه وروحه بمرور الزمن، وكلما ازداد نضجاً في عقله.

تلاوة القرآن معين كل حكمة

وهكذا فإن تلاوة القرآن الحقة هي معين كل حكمة وعلم وحلم وتفتّح في القلب المؤمن، وفي هذا المجال يُروى عن الإمام الرضا عليه السلام إنه كان يختم القرآن في كل ثلاث، وكان عليه السلام يقول:

«لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْتِمَهُ فِي أَقَلِّ مِنْ ثَلَاثٍ لَخَتَمْتُ، وَلَكِنْ مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ قَطُّ إِلَّا فَكَّرْتُ فِيهَا وَفِي أَيِّ شَيْءٍ نَزَلَتْ وَفِي أَيِّ وَقْتٍ، فَلِذَلِكَ صِرْتُ أَخْتِمُ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»^١.

وعلى هذا أفلسنا نظلم أنفسنا ظلماً فاحشاً عندما لا نعرج بها بالتدبر، والتفكير، والتمعن في آيات القرآن؟ ربما لا يوجد مَنْ ظَلَمَ نفسه بقدر ما ظلمنا نحن أنفسنا بهجرنا للقرآن، فتركنا آياته، وجعلناها ظهرياً.

ولقد جاء في الأحاديث الشريفة أن الناس في يوم الحشر ينظرون إلى كائن يأتي في أجمل وأحسن صورة، فيسألون: من هذا؟ أهو نبي مُرْسَل أم ملك مقرب؟ فيقال: كلا، ثم يسير ويسير حتى يقف تحت العرش ليشفع للمؤمنين، فتقول الملائكة: إنَّ هذا هو القرآن، إنَّه شافع مشفع، وماحل مصدق.

١ - بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٢٠٤، باب ٢٤، ح ١.

سورة (ق) والمعاني الجليلة

ومن جملة السور القرآنية المباركة التي تتضمن المعاني الجليلة، والأسرار الإلهية الدقيقة، سورة (ق) المباركة التي يقول تعالى في مطلعها:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَمْ آءَا مِنْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيزٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٌ﴾.

إنّ هذه السورة المباركة لعلها تدل على ذات كتاب الله أو ربما على معنى آخر، ثم إنّ هذا التعبير الشيق الذي لا يوازيه تعبير آخر في البلاغة والوضوح هو التعبير عن تلك الحقائق والسنن الكونية التي استقرت بالجعل الإلهي، ثم سرت وجرت عبر التاريخ.

ولو قارنّا هذا التعبير عن الحقائق والسنن الكونية بمجريات وأحداث التاريخ، وبحركة المجتمع، وطابقناه مع ظواهر النفس الداخلية، وظواهر المحيط الخارجي لوجدنا أنه أروع التعبيرات عنها، وأكثرها إنسجاماً ومطابقة، فالذي يتدبر التعابير القرآنية، ويبحث في مكنوناتها وآفاقها، ويتفقهها جيداً فإنه يسير نحو استلهاهم الحكمة، والإتصاف بالحلم، والاستغناء بالعلم؛ أي أنه سيصبح حكيماً، حليماً، عليماً، أقرب للصواب

في رأيه من الخطأ، وهو في صبره وحلمه بعيد عن الجزع والانهيـار، وفي صلابته وشجاعته لا يعرف الهزيمة والخذلان، والتراجع والاستسلام. فالحياة تفيض بالعبر، والدروس، والتأريـخ مدرسة كبرى، ومعلم خبير، ونحن لم نصل إلى ما وصلنا إليه منقطعين، ومنفصلين عن تلك المدرسة وهذا المعلم، فلقد مضت خلفنا الآلاف من السنين كان خلالها أناس، وكانت أمم وصراعات، ومعاناة تفوق ما نراه الآن آلاف المرات، ومع ذلك فإننا عندما نصطدم أحياناً بمشكلة أو معضلة ما، وخاصة من النوع الذي نفاجأ به، إذا بنا نفرّ وننهزم، وربما إن البعض منّا يكفر بالقيم والإيمان، وقد ينجرّف إلى الإلحاد والكفر بكل ما أنزل الله تعالى بمجرد أن يواجه أبسط فتنة.

والقرآن الكريم يشبّه هؤلاء بالذي يمشي على حافة الطريق، فهو أكثر تعرضاً لخطر الانزلاق والسقوط لمجرد أبسط تعثر أو غفلة، وخاصة إذا كان هذا الطريق جبلياً، فالسقوط من حافة الطريق في هذه الحالة يعني الوقوع في الهاوية والموت المحتّم، وفي هذا المجال يقول تعالى: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾^١.

إنّ مثل هذا الإنسان يعيش ضمن أطر ضيّقة، وتفكير ساذج بسيط، وهو أشبه بالطفل منه بالرجل، في حين إنّ ذلك الإنسان الواعي المدرك، والعارف المتدبر في شؤونه، وفي آيات الله عزّ وجلّ حين يتلوها، فإنه يكون ثابتاً مستقراً مطمئناً كما يقول الإمام الباقر عليه السلام: «الْمُؤْمِنُ أَصْلَبُ مِنَ الْجَبَلِ الْجَبَلُ يُسْتَقَلُّ مِنْهُ وَالْمُؤْمِنُ لَا يُسْتَقَلُّ مِنْ دِينِهِ شَيْءٌ»^١، وصدق الإمام في مقولته هذه؛ فإنك تستطيع بمعولك أن تُنقص من الجبل باقتلاع صخوره، وتعمل على هدمه بمرور الزمن، ولكن المؤمن الحقيقي صاحب الإرادة الصلبة لا يتزعزع، ولا ينقص منه، ولا يعرف الجزع، فكم صمد المؤمنون المجاهدون رغم ما تعرّضوا له من ألوان العذاب التي لا تُطاق كي تُتزعّ منهم كلمة كفر واحدة، ولكنهم أبوا حتى آخر رفق من حياتهم. وليس هناك عذاب أشد من ذلك الذي تعرّض له مؤمن آل فرعون الذي كان وزيراً للطاغية فرعون، فقد كان هذا الإنسان المؤمن على اتصال وعلاقة رسالية وثيقة مع موسى عليه السلام والمؤمنين من بني إسرائيل الرافضين لفرعون وحكمه، وعندما انكشف أمره أتوا به، وطرحوه أرضاً، وربطوا يديه ورجليه بأوتاد من الحديد، ثم شدوا على ظهره القصب بحيث عملوا من كل قصبة قضيين حادين كالسكين، ثم راحوا يسحبون هذه القضبان، لتسحب معها قطعاً من لحم ظهره، فينزف الدم، ويبلغ الألم مبلغه.

وكان البعض من المؤمنين يُنْشَرُونَ بالمناسير، والبعض الآخر يُقرض بالمقاريض، ومع كل هذه الأساليب البشعة في التعذيب ظلوا صامدين، يذكرون الله وحده، ويطلبون منه المغفرة في تلك اللحظات، ويسألونه أن يرزقهم الجنة، ذلك لأنهم كانوا على علم وبصيرة من إيمانهم، وذوي رؤية واضحة، ويدركون أن مسيرتهم الإيمانية لا بد أن تشهد مثل هذه الصعوبات والمعاناة، وإنما لسنةً تأريخية تلك الصراعات، وذلك الاحتدام المير الطويل بين الحق والباطل، والعدل والظلم، والمعروف والمنكر، وبين كل المعاني المتناقضة.

الصراع سنة تأريخية

وقد بيّنت لنا هذه الحقيقة الأحاديث الشريفة ومن بينها قول أمير المؤمنين (عليه السلام): «إِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ»^١، وعلى سبيل المثال فإن أولئك الجفاة الذين انصرفوا عن مسلم بن عقيل، وتخلوا عنه، حتى تركوه لوحده في ميدان الجهاد مطلقين شعار «ما لنا والدخول بين السلاطين»، هؤلاء الذين تركوا الحق ونصرة أهله، ترى هل سلموا على أنفسهم من السلاطين؟ كلا، بل هم أنفسهم الذين تشكل منهم جيش ابن زياد، وخرجوا لقتال الحسين (عليه السلام)، فصدق قول أمير المؤمنين (عليه السلام) فيهم: «إِنَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ»، حيث قُتل الكثير منهم على يد

أبطال كربلاء، وحسبها تذكر لنا بعض الروايات فإن ما من بيت من بيوت الكوفة إلا ودخله العزاء.

أما الذين قُتلوا في معسكر أبي عبدالله الحسين (عليه السلام)، فقد قُتلوا بعزة وشرف وإباء، وعلى بصيرة من أمرهم، بعد أن أبلوا في قتالهم وجهادهم بين يدي الحسين (عليه السلام) بلاء حسناً، وثأروا لدينهم، فأصبحوا مُحلِّدين في قلب التاريخ، وأضحت قبورهم مزار وملاذ الناس.

وهكذا فإن الاستقامة والصبر والثبات وغيرها من الصفات الرسالية التي كان يتصف بها الأنبياء، والأوصياء، وأصحابهم تُمثِّل أهم الخصائص التي يجب التحلي بها عند الشدائد والملمات والفتن والمصائب، فيجب - إذن - أن نتمعن في التاريخ، ونأمل تلك الصراعات؛ كيف كانت، وإلى أين آل بها الأمر، ثم كيف انتهت بانتصار الأتقياء والمؤمنين والصالحين، وكيف نالوا خير الجزاء وعظيمه؟ فإن استلهم العبر من التاريخ ينفعنا في بناء المستقبل المشرق الزاهر.

والظروف الصعبة التي نمر بها هي حالة الاستثناء في حياة الأمم، فلا بد من زوالها، ولا بد من انقراض الظلم، وذهاب الليل، ومجيء الصبح، ثم علينا أن لا نستعجل حصول هذا المطلب، فالسنن الإلهية تعمل عملها، وربما يدركنا الأجل ونحرم من إشراقة ذلك اليوم، ولكن علينا

أن لا ننسى أن الحياة لا تنتهي بموتنا وذهابنا، بل هناك أجيال قادمة هم أولادنا الذين سينعمون بالحرية والسعادة.

فالأيام - إذن - هي محك الرجال، وهي التي تكشف عن معادهم، وهي التي تميز ذوي العزائم الثابتة من ذوي الهمم الخائرة.

علينا أن لا نستعجل النتائج

وللأسف فإن البعض منّا يتصور إن الثمار تنضج في ليلة وضحاها فيستعجل قطفها، فهم يريدون أن يتم كل شيء بسرعة هائلة، ويريدون بلوغ الأهداف وتحقيق الآمال في وهلة زمنية قصيرة هي ساعة في عمر الأمم والحضارات، ونحن نقول لهؤلاء الذين فقدوا صبرهم: لماذا تخططون للأهداف من خلال إطار ضيق، كأن تحصروها في زوال نظام متجبر معين، وتتجاهلون الآفاق التي تمتد عبرها الأهداف؟ أنتم اليوم تشاهدون هذه الصحوة الإسلامية الواسعة، والتوجه نحو الإسلام الآخذ في الاتساع يوماً بعد آخر في العراق، ولبنان، وفلسطين، ومصر، والأردن، والجزائر، وتركيا، وباكستان، وسائر بلاد المسلمين.. فمن أين هذا كله يا ترى؟

إننا يجب أن لا ننسى إن حركتنا هي من أجل القرآن والإسلام، وهدفها بحجم الإنسانية، وهذا العالم الرحب، فهو لا يقتصر على نظام

وبلد معينين، وأن هذه المساجد، والقباب، والمآذن الشاخحة التي تصدح ليل نهار بذكر الله تعالى هي حصيلة دماء الشهداء، وتضحيات الرساليين الداعين إلى الله، والقرآن الكريم يقول في هذا المجال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ^١.

فلو لم يكن هناك صراع، ولم يكن مَنْ يذود عن الحق، ويجاهد ويضحي في سبيل الله لما كانت هذه المساجد وكل الأماكن المقدسة، فبتلك الدماء الزاكية، والتضحيات الجسام نشهد اليوم إقبال الناس على الإيمان والدين في جميع أنحاء العالم، ففي أوروبا يوجد اليوم عشرات الملايين من المسلمين الذين صاروا يشكلون قوة وثقلاً لا يستهان بهما، الأمر الذي دفع واضعي السياسة الغربية إلى البحث عن كل الوسائل والطرق التي يتصدون بها للمد الإسلامي الذي بات يهددهم، حيث انتشار الصحوة الإسلامية بين الأوروبيين أنفسهم، وليس أدل على ذلك من اعتناق الكثير منهم الإسلام وخاصة في أوساطهم الفكرية والعلمية بل وحتى السياسية والصحافية. ولو بحثنا في جذور ودوافع تأليف ونشر وترجمة كتاب (الآيات

الشیطانية) وتوزيعه في مناطق مختلفة من العالم وخاصة أوروبا، لاكتشفنا إن الغرب هو الذي دعم هذا الكتاب، ووقف وراءه ووراء مؤلفه المرتد بسبب انتشار الإسلام، وامتداد نوره وإشعاعاته الرحيمة لإنقاذ الإنسانية المعذبة على هذه الأرض.

المستقبل للإسلام

إنّ معظم الشعوب بدأت تدرك إن ما هي عليه من ديانات ومعتقدات ما هي إلا قناعات زائفة لم تعد علاجاً لأرواحها، ودواء لأمراضها الاجتماعية الفتاكة، ولا تلعب دورها في بناء السياسة والاقتصاد السليمين اللذين يضعان حداً لمآسي الإنسانية وآلامها، كما أن تلك الأديان لم يعد بإمكانها سد الفراغ الروحي الذي تعاني منه شعوب ما يسمى بـ (الحضارة الأوروبية) هذه الحضارة التي أصبحت مرتعاً خصباً للفساد، والانحلال الخلقي، وضياع المفاهيم والقيم الإنسانية، فمن الطبيعي أن تتوجه تلك الشعوب إلى الإسلام ورسالته المنقذة.

إن هذه الشعوب جوعى للقيم الروحية، والمفاهيم الإنسانية، وبحاجة إلى ما يوقف فيها هذا التوجه المادي والإفراط فيه، وهذه الحاجة ليست مفروضة عليهم بل إن طبيعة الإنسان نفسها طبيعة إيمانية، فالإنسان مفطور على الإيمان، والبحث عن الغيب، وقوى ما وراء المادة، فهو دائم

البحث عن فلسفة هذا الوجود، وفلسفة حياته؛ لماذا وُلِد؟ ولماذا يعيش؟ ولماذا يموت؟ وهو حين لا يجد الأجوبة الشافية في ديانته، ولا يجد فيها ما يطفئ غليل ضميره الظامئ، فمن الطبيعي أن يبحث عن تلك الأجوبة في الإسلام والقرآن، الأمر الذي يدفعه إلى أن يترك ديانته ليعتنق الدين المنقذ الذي فيه دواء الروح، وعلاج النفس، وراحة الضمير، ألا وهو الدين الإسلامي.

وبعد، فهذا هو فعل المدّ المقدّس، والصحوة المباركة التي أخذت تنتشر حتى في أعماق أوروبا، وبدأت تهدد قلاع الماسونية، وحصون الصليبية والصهيونية التي تمثّل بؤر الفساد والعدوان اللذين يُصدّران إلى البلدان المستضعفة. إن هذه الصحوة التي يعيشها المسلمون، وشعوب العالم المستضعفة هي بفضل تلك التضحيات والدماء التي سُفكت على طريق الجهاد الشائك.

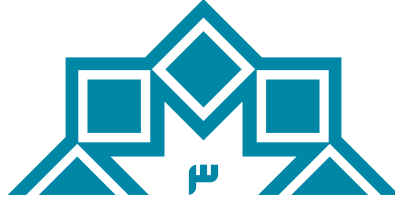
التاريخ مدرسة كبرى

وهكذا فإن التاريخ هو مدرسة كبرى تتجلى فيها العبر، ويُستلهم منها ما ينفعنا في العمل والحركة والانطلاق، والذي يدرس في هذه المدرسة، ويتلمذ على يد هذا المعلم الخبير فمن المستحيل أن يصبح عرضة للاهتزاز، بل إن المصائب لا تهزّه، والمعاناة والصعاب والمعضلات الطارئة والظواهر

السلبية التي يمر بها في حياته لا تنال من عزيمته، بل هو يسمو فوق كل ذلك، فعندما تعترضه المشاكل يعمل على تحليلها، وإعطائها حجمها وقياسها، وما يناسبها من الاهتمام، ثم يعمل على علاجها، وتلافيها بقلب مطمئن، وأعصاب حديدية.

هذا في حين أن ذلك الذي لا يعير أي إهتمام للتأريخ، ولا يستلهم من عبره فإنه سينهار أمام كل مشكلة جديدة، فلا يعرف كيف يتصرف إزاءها، وكيف يعالجها، وهكذا يكون موقفه أيضاً من الأخطاء الكبيرة ذات الأثر السلبي العميق.

أما كيف نقرأ التأريخ، ونتلمذ على يده، فيتم ذلك من خلال قراءة القرآن وتلاوته حق التلاوة، والتدبر في آياته، ومعانيها الجمة الواسعة، وقصصه الخالدة التي تبين السنن الإلهية الثابتة، وخلاصة القضايا المختلفة في كافة مجالات حياتنا سواء على المدى القريب أم البعيد.



القرآن منهج التكامل الإنساني

على الرغم من أن الإنسان خُلق من المادة الكثيفة، فإن روحه التي هي الأقوى والأشدّ إنها خُلقت من مادة لطيفة، وإن من طبعها الحركة، فتكون طبيعة الإنسان وفطرته الأولية هي الحركة الدائبة باتجاه التكامل، ومن هنا يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^١.

قابلية التكامل في فطرة الإنسان

لقد خلق الله الإنسان وأودع فيه قابلية التكامل والعروج، ولكن على الرغم من ذلك نرى أن كثيراً من الناس يهبطون نحو الحضيض: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^٢ حتى يصبح هذا الإنسان الذي خلقه الله ليكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويكون موضعاً لقدرة الله وإرادته ومشيتته المطلقة كما يصرح بذلك الحديث القدسي:

١- سورة التين / ٤.

٢- سورة التين / ٥.

«عَبْدِي أَطْعَمَنِي حَتَّى أَجْعَلَكَ مِثْلِي، أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ، تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ»^١، هذا الإنسان نراه في بعض الأحيان يتردى إلى الحضيض حتى يصبح حطب جهنم، فإذا كانت في ضميره فطرة التقدم والتكامل فلماذا الانتكاس والهبوط إلى الحضيض؟

جواباً على ذلك نقول: إنَّ محرَّك التقدم متوفر عند الإنسان، ولكن قد تترسب رواسب في محركات هذا التقدم، وفي هذا المجال يمكن أن نشبّه الإنسان بالطائرة، ونشبّه روحه وضميره وتطلعه إلى السمو والكمال بمحركات هذه الطائرة، فهذه المحركات قد تترسب فيها المواد الإضافية فتصبح محركات غير فاعلة، وبحاجة إلى ما ينظفها ويطهرها ويهيئها للعروج بالطائرة.

الرواسب التي تمنع تقدم الإنسان

وهكذا الحال بالنسبة إلى (محركات) الإنسان المعنوية، فإنها أيضاً بحاجة إلى صيانة وتنظيف، بحاجة إلى تركية وتطهير، وقبل أن نبين ما يزكّي هذه المحركات، وما يطهر نفس الإنسان، ويعطيه زخم التقدم والتكامل، نطرح السؤال التالي: ما هي الرواسب التي تدخل في عجلة التقدم عند الإنسان، فلا تدعه يستمر في مسيرة التقدم؟

الجواب؛ إنها ألوان شتى من الرواسب، منها اليأس الذي يحجب الإنسان عن رؤية مستقبله، فيقول؛ أنا ولدتُ إنساناً مستضعفاً، والمستكبرون أحاطوني بأساليبهم الماكرة وبارها بهم، واليد التي لا أستطيع أن أقطعها فعليّ أن أقبلها! مثل هذه التبريرات هي تعبير عن وجود حقيقة مُرّة في نفس الإنسان، وهي حقيقة اليأس من اختراق حواجز الحياة، والتقدم إلى التكامل؛ وحتى إذا انبعث فينا نور الأمل للحظات عند سماع القصص والبطولات التي تبعث على الأمل، إلّا إن هذا النور سرعان ما ينطفئ، وسرعان ما نبرّر يأسنا بقولنا: أين نحن من أصحاب تلك القصص والبطولات، وأين الثرى من الثريا؟! وهكذا يسارع اليأس إلى قلوبنا ليمنع محرّك الطموح من أن يتحرك في نفوسنا.

دَوّامة التساؤلات الحائرة

الراسب الآخر من رواسب الجمود أن يطرح الإنسان على نفسه مجموعة من الأسئلة الحائرة المضطربة كقوله: ثم ماذا؟، وماذا سأصبح؟ ومن يقول إن هذا الكلام صحيح؟ ومن خرج من قبره ليُنبئنا عن الموت؟ ومن أين جئنا وإلى أين نحن نسير؟ وكيف اخترنا طريقنا؟ ومن قال إن هذا الطريق صحيح؟ ومن الذي يثبت أن هناك شيئاً وراء عالم الفكر؟ مثل هذه التساؤلات ردها من قبل السوفسطائيون وأصحاب الخيال

أو أمثال الذين قالوا بعدم وجود شيء وراء عالم الفكر، وإن كل ما هو موجود ما هو إلا ظلال في المرايا وصور.

يقال أن الشيخ بهاء الدين العاملي كان في غرفة مغلقة مع شخص يقول بالسوفسطائية وعدم وجود أي شيء في الدنيا، وقد حاول الشيخ أن يقنعه ببطلان عقيدته ولكنه لم يكن يقتنع رغم أن الشيخ كان يعرض عليه الأدلة تلو الأدلة حتى انزعج منه الشيخ، فأخذه إلى جانب من الغرفة كانت فيها مدفأة، فدفعه باتجاهها فوقع عليها ثم صاح (آه)، فسارع الشيخ قائلاً: مَنْ يقول إنك موجود؟ وَمَنْ يقول إن هذه المدفأة موجودة؟ هذه كلها أكاذيب وأخيلة، فلماذا تصرخ من الألم؟

مثل هذه الفلسفات والعقائد لا تمثل حقائق يُطمأن إليها، ولكنها مع ذلك تستطيع أن توقف عجلة التقدم عند الإنسان وهي كثيرة.

إنّ التساؤلات السلبية من شأنها أن توقف محرك التقدم عندنا، وتشغلنا عن التفكير الجدي في أمور حياتنا، كما حدث للمسلمين في القرن الثالث الهجري حيث كانوا منهمكين بنقاشات ومجادلات لا طائل من ورائها من مثل؛ هل القرآن مخلوق أم قديم؟ فهذه مسألة ليست مهمة ولكنها شغلتهم عن بناء الحضارة الإسلامية، فقد كان من المفروض أن تبلغ الحضارة والتكنولوجيا الإسلامية مستوى التقدم الذي بلغته الحضارة

الإنسانية بعد ذلك بعشرة قرون، فإذا ما بحثنا عن أسباب التقدم، وكيفيته، وأسلوب إنبثاق الثورة الصناعية لرأينا إن عوامل نشوء هذه الثورة كانت متوفرة في القرن الثالث الهجري.

سبب تأخر المسلمين

إذن، لماذا لم يحمل المسلمون راية التقدم الصناعي في العالم؟ السبب في ذلك هو انشغالهم بتلك التساؤلات العديمة الجدوى، ترى ما هو شأنكم بالقرآن إن كان مخلوقاً أم قديماً، إذهبوا وادرسوه وطبقوه على حياتكم فهذا هو المهم.

هذه الجدليات انتشرت انتشاراً واسعاً، وما عرضناه كان جزءاً يسيراً منها، وهناك تساؤلات عقيمة أخرى بسبب توقف مسيرة تكامل الإنسان كفرد وكأمة.

وهناك صفات سيئة تسهم هي الأخرى في إيقاف تقدم الإنسان، ومن ضمنها الحسد الذي يعني أن نتمنى زوال نعمة الغير وصيرورتها لنا، كأن ترى أحداً جالساً في موقع إداري حساس ومهم، فتقول إن هذا المكان مغصوب، وإن من المفروض أن أجلس مكانه.

وهكذا فإن الحسد هو سبب من أسباب توقف تكامل الإنسان، فالإنسان الحسود يأكل نفسه دون أن يدرك، وهذه الصفة توقف محرك

التقدم عند الإنسان.

فإذا كان الإنسان ممتلكاً لمحركات التقدم والتطور والتكامل، وإذا كان هناك ما يسبب توقف هذه المحركات، فماذا يجب عليه أن يفعل ليظهر نفسه، ويتخلص من أسر تلك العوامل لكي يصون طموحه وتطلعه، ويستمر في التقدم؟

الأجوبة نجدها كلها في القرآن الكريم الذي نزل ليحيب الإنسان على تساؤلاته الحائرة، ولينظف قلبه من الرذائل كالحسد، والحقد، والتباغض، والصفات الرذيلة الأخرى، ويبعث فيه روح التطلع والتقدم والانطلاق، ويبقيه في مسيرته التصاعدية.

هذا هو القرآن الكريم، ولذلك فإن الذي لا يقرأه ولا يتلو آياته فإنه سوف يبقى أسير تصورات وأوهامه وخرافته وأساطيره، ويبقى بالتالي متخلفاً ذليلاً متوغلاً في الفساد والتبعية.

القرآن الكريم موجهنا نحو التكامل

إن القرآن الكريم يضبط أحاسيسنا وعواطفنا، ويوجهها باتجاه السمو والتكامل، فإذا قيل لك بأن فلاناً قد مات فإن هذا النبأ سوف يحدث في نفسك ثورة عاطفية، وهذه الثورة من الممكن لك أن توظفها في اتجاه التكامل، كما أن من الممكن أن تصبح سبباً للانتكاس، فأنت - كإنسان

مؤمن - تقول عند سماعك هذا الخبر: إنا لله وإنا إليه راجعون، وهذه الكلمة من شأنها أن توجه ثورتك العاطفية باتجاه التقدم، لأنك تنطلق من فلسفة واضحة، ومعتقد ثابت؛ فأنت تعرف أنك شبيه ذلك المتوفى ونظيره، فلا بد من أن تسير في نفس اتجاهه، وهذا الاتجاه سيكون إلى الله، وأنه تعالى سيحاسبك على أعمالك، فتضبط نفسك، وتشحن إرادتك فتصبح بذلك أفضل وأتقى.

أما الإنسان غير المؤمن فإنه سوف يُصاب بالكمد، وتتراكم العقد عليه، وتصبح نفسه قطعة سوداء، وهذه السوداءية سوف تمنعه من التقدم والعمل.

وهناك في هذا المجال رواية طريفة عن الإمام علي عليه السلام، تقول هذه الرواية أنه عليه السلام كان ذات يوم يتحرك باتجاه صفين، ثم مرّ في طريقه على إحدى المدن القديمة التي كانت قد تحوّلت إلى أطلال خربة، فبادر أحد الذين كانوا مع الإمام علي عليه السلام إلى إنشاد هذا البيت:

جَرَتِ الرِّيحُ عَلَى رُسُومِ دِيَارِهِمْ
فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ

فلفت الإمام عليه السلام انتباهه إلى أن هذه الكلمة لا تقال في هذه المواضع لأنها لا تمنحك العبرة، والقرآن الكريم هو أحسن تفسيراً، فقال عليه السلام: «أَلَا

قُلْتُ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ* وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْهِنَ* كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^١ ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾^٢. إِنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا وَارِثِينَ فَأَصْبَحُوا مَوْرُوثِينَ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يَشْكُرُوا النِّعْمَةَ فَسَلَبُوا دُنْيَاهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ إِيَّاكُمْ وَكُفْرِ النِّعَمِ لَا تَحُلْ بِكُمْ النَّقْمَ»^٣.

نحن المسلمين ورثنا اليوم شلالاً من الأفكار المتخلفة التي كانت نتيجة أساطير وخرافات وفلسفات وأفكار نفدت في كيان الأمة، وهذه الأفكار هي بمثابة أغلال في أيدينا وقيود لا تدعنا نتحرك إلى الأمام، فقد تحولت الآن تلك الروح التكاملية، وذلك الأمل المشرق والنفسية الإيجابية إلى مجموعة من العقد المتراكمة.

والإنسان بفطرته لا يولد هكذا بل إنه بطبيعته يجب التقدم والكمال والتضحية والإيثار، فهو يلتذ بالإحسان إلى الآخرين أكثر مما يلتذ بالأخذ منهم، ولكن الكثير من المسلمين تحولت حالتهم إلى أيدٍ ممدودة تريد الأخذ دائماً، وهذه حالة شاذة منكوسة، فالإنسان بطبيعته يجب أن يملك الدنيا لكي يعطيها.

١- سورة الدخان / ٢٥ - ٢٨.

٢- سورة الدخان / ٢٥ - ٢٨.

٣- السرائر، لابن أدريس الحلبي، ج ١، ص ٤٨٤.

وبالإضافة إلى ذلك فإننا اليوم نعاني من أفكار متخلفة جاهلية لا تمت إلى الإسلام بصلة، وعلينا أن نتخلص منها لكي نتحرر من التبعية ومن الأفكار السلبية من خلال العودة إلى القرآن الكريم، وإلا فإن رسول الله ﷺ سوف يشكونا إلى الله يوم القيامة بنص الآية القرآنية التي تقول: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^١.

ترى أين نحن من القرآن؟ وكم واحداً منا يحفظه، ومن منا قرأ تفسير القرآن كله من أوله إلى آخره؟، معاذ الله أن نكون ممن تنطبق عليهم تلك الآية فيحاكمنا رسول الله ﷺ في محكمة العدل الإلهية يوم القيامة. إن خلاصنا يكمن في القرآن لأنه يمنحنا ما نحرك به أسباب التقدم في أنفسنا، وما ينظف فطرتنا، ويعيدنا إليها بسلام.



القرآن والحقائق الكبرى

من الملاحظ أن القرآن الكريم ينهج أسلوب الإشارة المفيدة في عرضه القصصي، وقد تكون هذه الإشارة موسّعة، فيها شيء من التفصيلات عند اقتضاء الضرورة، كما هو الحال في عرضه لقصة النبي موسى عليه السلام في إظهار تبليغه الرسالة، ومقارعة الطاغوت، وإقامة حكم الله تعالى في الأرض، وكذلك الحال في قصة النبي يوسف عليه السلام.

غير أن القرآن الكريم دأب على العموم إلى الإشارة الموجزة في كثير من الأحيان كما هو الحال في سورة هود - مثلاً - .

وفي الإشارة الموجزة لا يهتم القرآن - عادةً - بتفاصيل الأحداث، والأخذ بكل جوانبها، صغيرها وكبيرها.. لذلك نجد المفسرين لازالوا مختلفين حول أبعاد قصص القرآن.

فعلى سبيل المثال نراهم يختلفون في آرائهم ونظرياتهم في مواطن

الأحداث وتفاصيل القصص كما هو الحال بالنسبة لعاد أو ثمود، أو من أين إنطلق النبي نوح عليه السلام وأين رست سفينته، ثم ما هي اللغات التي كانوا يتحدثون بها، وكيف هي صور حياتهم ومعيشتهم، وعاداتهم وطباعهم.. الكثير من هذه التفاصيل وغيرها قلما نجد القرآن المجيد يتعرض لها.

وبالطبع لا يخلو هذا الإهمال القرآني - لتلك التفاصيل - من حكمة ابتغاها الربّ الجليل، ولعلّ من هذه الحكمة أن لا نتوجه إلى تلك التفاصيل الجمّة، فنهتم بها ونركزها في حياتنا، وننسى الحقائق الكبرى، التي هي الأساس في تبيان تلك القصص، من أجل الأخذ بدروسها، والاتعاظ بعبورها..

ولا يغيب عنا إن نفس الإنسان عادةً تميل نحو الهوامش، وتحبّذ الترف الفكري، لأن هذا أيسر سبيل للهروب من تحمل المسؤولية.

ولكن من أراد أن ينشأ من كيانه شخصية قرآنية، يجدر به أن يستلهم الدروس والعبر من قصص القرآن الكريم، كما يجدر به أن يستوعب الحكم والبصائر التي تفيض من تلك القصص الهادفة، بالإضافة إلى ذلك ينبغي عليه أن يعتمد عليها في رسم منهجيته في الحياة، لتكون كل فصول حياته تشع بنور القرآن.

ولا يخفى إن بناء الشخصية القرآنية لا يمكن إحداثها بالاعتماد على

التفاصيل الهامشية، بل لا بد من الغوص في عمق الحقائق الكبرى، لإدراك محتواها، ومن ثم ترجمتها عملياً ومنهجياً في مجموع النشاطات الحياتية التي نقوم بها.

ومن خلال التدبر في سورة هود المباركة، تتجلى لنا عدة حقائق مهمة وكبرى، تحكي سر الصراع الذي كان قائماً - يومئذ - بين فريق يؤمن بالله تعالى، وآخر كافر جاحد ملحد.

ولعل أولى هذه الحقائق هي مدى درجة العناد والاستكبار التي تعطي أولئك الذين تحدوا رسالات الله نزع الجحود حتى بلغت بهم هذه الدرجة من العناد والاستكبار، إنهم استعجلوا العذاب الإلهي الشديد، والذي دُمروا به شر تدمير.

والحقيقة الثانية هي مدى الثبات والإصرار والاستقامة الموسومة بالصبر والتضحية لدى رسل الله والذين آمنوا بهم واتبعوهم.

أما ثالث هذه الحقائق الكبرى فهي التي تخبرنا عن العاقبة، وما انتهت إليه معادلة الصراع بين استقامة الرسل من جانب وعناد الكافرين وجحودهم بآيات الله ورسالاته من جانب آخر.

هذه الحقائق الثلاثة تتجلى جميعاً في الإشارة الجوهرية للقصص التي تطرقت لها سورة هود، فمرة في قصة النبي نوح مع قومه، وأخرى في

قصة النبي إبراهيم مع طاغية زمانه وقومه، وثالثة مع النبي هود وأخرى مع النبي صالح وهكذا..

وثمة فكرة ينبغي أن لا ننساها، وهي أن هذه الحقائق الكبرى التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة هود، وفي كل سور القرآن الكريم، لم تكن حبيسة تلك الحقبة الزمنية التي غابت في عمق التاريخ، وإنما ذكرت لأجل أن تخلق إنعكاسات واضحة في كل جيل.

من هنا ينبغي أن نعي أن في كل عصر وفي كل مصر هناك من يمثل دور النبي نوح أو إبراهيم أو هود أو صالح عليهم السلام، وفي مقابل هؤلاء الذين يمثلون جبهة الحق، يقف الكفرة والمعاندون وجبهة الحق.

وكما دار بين ذلكما الفريقين من صراع، كذلك اليوم يتجسد في بقاع الأرض، إذ أن سُنَّة الصراع، والحقائق الناجمة عنها قائمة تفعل فعلها، فهي باقية ما بقي الدهر.



الله سبحانه نوران؛ نورٌ يتجلّى في كتابه، ونورٌ يفيض على قلب عباده الصالحين، فالقرآن الكريم نور الله في كلمات. وقلب المؤمن يعمر بنور اليقين الذي يفيض مباشرة من عند الله عليه.

والتدبّر في آيات الله عند الذين اوتوا نور اليقين، هو ميعاد لقاء نور القلب بنور الربّ.

وعندما ينظر المؤمن بنور الله في آيات الذكر، فإنّ حدود المعرفة تصبح مترامية، وانبعاثاً من نقطة مركّزة، هي معرفة الله بالوحدانية، وانتهاءً بكل ذرّة في هذا العالم الفسيح، يتشكل عرفان المؤمن شالاً متدفقاً من نور العلم.

وعلى المؤمن أن يجتهد أبداً ليرتفع إلى درجة الانتفاع بالقرآن، وأنّ يطهر قلبه من حجاب الخوف من معرفة الحق، وأنّ يسعى لتنفيذ وصايا القرآن مما يوفّقه لمعرفة المزيد من حقائقه.

وحين يقرأ المؤمن القرآن يفرّغ قلبه من أية فكرة أو وسوسة، ويتوجّه إلى نور الكتاب مباشرة، فسوف يجد من فيضه موجات متلاحقة.

